لبنان

في عيون طلال أبو غزالة 2026

تأليف برهان الأشقر

لبنان

في عيون طلال أبو غزاله

2026

> أنا مواطن عربي صُنع في لبنان
>
> .... طلال أبو غزاله

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2026/6/3620)

920.0562

الاشقر، برهان فالح محمد
لبنان في عيون طلال أبوغزاله 2026 - عمان: شركة طلال أبوغزاله للترجمة والتوزيع والنشر، 2026

(77) ص
ر.أ.: 2026/6/3620

الواصفات: /الاقتصاديون//السيرة الذاتية//الفكر الاقتصادي//لبنان/
الطبعة: الطبعة الأولى

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

ردمك ISBN (978-9923-847-53-4)
ردمك ISBN E-BOOK (978-9923-847-54-1)

الفهرس

المقدمة 1

الفصل 1: الجذور والبدايات 5

الفصل 2: بيروت الخمسينيات والستينيات 12

الفصل 3: رؤية أبوغزاله للبنان 16

الفصل 4: مؤسسات أبوغزاله في لبنان 21

الفصل 5: في رحاب الجامعات اللبنانية 30

الفصل 6: المؤتمرات الصحفية والإعلام 35

الفصل 7: دعم المعرفة والتكنولوجيا 40

الفصل 8 : لبنان في زمن الانهيار 45

الفصل 9: شهادات تُضيء المسار 48

الفصل 10: لبنان في كتاباته العالمية 54

الفصل 11: أثره على بيئة الأعمال 59

الفصل 12: لبنان الذي يريده 63

الخاتمة 67

قائمة إصدارات مجموعة طلال أبوغزاله العالمية المنشورة 70

المقدمة

ثمة بلدان تمرّ في حياة الإنسان كما يمرّ المسافر بمحطة قطار: يتوقف فيها برهة ثم يمضي دون أن يلتفت. وثمة بلدان من طينة مختلفة – بلدان تسكن في الوجدان وتتغلغل في التكوين وتصبح جزءاً من الهوية، حتى لو ابتعد عنها صاحبها آلاف الأميال وعاش في عواصم أخرى وحمل جوازات سفر مختلفة. لبنان، في حياة الدكتور طلال أبوغزاله، ينتمي بلا أدنى شك إلى هذا النوع الثاني.

ليس هذا البلد الصغير المطلّ على المتوسط مجرد عنوان لمكتب من مكاتب مجموعته المنتشرة في أكثر من مئة عاصمة حول العالم. وليس اسماً على خريطة رحلات عمل لا تنتهي. لبنان، في الجوهر، هو الفضاء الذي تشكّل فيه الوعي الأول لطلال أبوغزاله. هو الأرض التي احتضنت البذرة في أضعف لحظاتها وأكثرها هشاشة – لحظة اللجوء والفقر والضياع – فمنحتها ماءً وضوءاً وتربة، قبل أن تصير تلك البذرة شجرة تمتد فروعها عبر القارات. في مدن لبنان وقراه الصغيرة، وبين جدران مدارسه المتواضعة ذات المقاعد الخشبية المتآكلة وقاعات جامعاته العريقة ذات الأسقف العالية، رُسمت الملامح المبكرة لحكاية طفلٍ لاجئ سيغدو لاحقاً أحد أبرز الأسماء العربية والعالمية في ميادين المحاسبة والملكية الفكرية واقتصاد المعرفة.

هذا الكتاب – "لبنان في عيون طلال أبوغزاله" – محاولة لقراءة لبنان من زاوية تلك الحكاية الفريدة، ومن خلال عيني رجل عرف هذا البلد على أكثر من صعيد: عرفه ملاذاً حين ضاقت الدنيا بعائلته الفلسطينية بعد نكبة 1948، وعرفه مدرسة حين جلس على مقاعد الصفوف في قرى الجنوب، وعرفه جامعة حين التحق بالجامعة الأميركية في بيروت، وعرفه ساحة عمل حين بدأ يشقّ طريقه في عالم المهنة والأرقام، وعرفه أخيراً ميداناً يعود إليه حاملاً خبرته ومؤسساته ورؤاه ليردّ بعض ما أخذ.

لا ينظر هذا الكتاب إلى لبنان كمجرد حاضنة لطفولة رجل ناجح وشبابه. إنه يتعامل معه كشريك صامت – لكنه فاعل – في صناعة تلك المسيرة الطويلة. فلبنان كان الملجأ الأول بعد النكبة حين لم يكن ثمة مكان آخر يذهب إليه. وكان المدرسة الأولى التي علّمت الفتى أن المعرفة هي السلاح الوحيد الذي لا يُصادر. وكان الجامعة الأولى التي فتحت عقله على عالم الإدارة والاقتصاد والمؤسسات. وكان النافذة الأولى التي أطلّ منها على فضاء الأعمال والفكر والإعلام. حضور لبنان في هذه السيرة يتخطى حدود الجغرافيا والمكان ليصبح طبقة أساسية في تكوين إنساني وفكري ومهني لا يكتمل من دونها، ولا يُفهم بمعزل عنها.

لا يدّعي هذا العمل أنه سيرة ذاتية شاملة لطلال أبوغزاله – فتلك مهمة أوسع وأعقد من أن يحتويها كتاب واحد. ولا يتحدث باسم الرجل أو ينطق بلسانه. ما يفعله هو شيء أكثر تحديداً وربما أكثر حميمية: يتتبّع الخيط اللبناني في نسيج تلك السيرة الكبيرة، ويحاول أن يفهم كيف أثّر هذا البلد في تشكيل الإنسان والمفكّر ورجل الأعمال، وكيف أثّر هو بدوره في هذا البلد. يتتبّع ذلك الخيط من لحظة اللجوء الأولى إلى الجنوب اللبناني، مروراً بسنوات الدراسة والتكوّن في بيروت الخمسينيات والستينيات، وصولاً إلى الحضور المؤسسي لمجموعة طلال أبوغزاله في السوق اللبناني، ثم إلى الطريقة التي يتحدث بها الرجل عن هذا البلد اليوم أمام العالم، وإلى المستقبل الذي يراه ممكناً له إذا توفرت الإرادة والرؤية.

تنطلق هذه القراءة من قناعة أساسية بأن العلاقة بين الإنسان والمكان ليست علاقة من طرف واحد. ليست علاقة مانح ومتلقٍّ، بل هي علاقة تأثير متبادل لا يتوقف. لبنان، بفسيفسائه الطائفية والثقافية، وبحيويته الاقتصادية والفكرية في حقبته الذهبية، وبتجربته المُرّة مع الحروب والأزمات، أسهم في صقل شخصية أبوغزاله ومنحها أبعاداً ما كانت لتكتسبها في بيئة أخرى. دفعه مبكراً إلى اكتشاف قيمة التعليم كسلاح وجودي لا ترف أكاديمي. وعلّمه أن الانفتاح على الآخر المختلف – في الدين والثقافة واللغة والطبقة الاجتماعية – ليس ضعفاً بل مصدر قوة. وأراه بالتجربة المباشرة كيف يمكن لبلد صغير أن يكون كبيراً إذا راهن على عقول أبنائه لا على ما في باطن أرضه

وفي الاتجاه المعاكس، لم يمرّ الرجل في هذا البلد مرور الضيوف العابرين الذين يأخذون ويمضون. ترك من خلال مؤسساته ومبادراته وخطاباته وحضوره المتواصل بصمةً لا تُخطئها العين في بيئة الأعمال اللبنانية: في طريقة تعامل الشركات مع التدقيق والحوكمة، وفي وعي المبدعين بحقوق ملكيتهم الفكرية، وفي مناهج التدريب المهني التي أدخلها إلى السوق، وفي ثقافة التحوّل الرقمي التي بشّر بها قبل أن تصبح ضرورة يفرضها الواقع، وفي الأمل الذي زرعه في نفوس آلاف الطلاب الذين استمعوا إليه في قاعات الجامعات وهو يقول لهم بصدق من عاش التجربة: "الظروف الصعبة ليست نهاية الطريق. قد تكون هي الوقود الذي يصنع النجاح."

يتحرك هذا الكتاب على مستويات عدة ويفتح نوافذ متعددة على العلاقة بين الرجل والبلد. يتوقف أولاً عند البعد الإنساني والتكويني: طفولة اللجوء في قرى الجنوب اللبناني بكل ما حملته من فقر وألم وأمل غامض، والمدارس البسيطة التي لم تملك

إمكانات كبيرة لكنها منحته أثمن ما يمكن أن تمنحه مدرسة – الإيمان بقوة العلم، وأروقة الجامعة في بيروت التي صقلت وعيه ووسّعت مداركه وأدخلته إلى عالم الأرقام والمؤسسات والإدارة. ثم ينتقل إلى البعد المؤسسي: حضور مجموعة طلال أبوغزاله في لبنان وما تقوم به من أدوار في المحاسبة والتدقيق والاستشارات والتدريب والملكية الفكرية والتكنولوجيا، وعلاقتها بالمؤسسات والشركات والجامعات اللبنانية، والأثر الذي تركته في الثقافة المهنية السائدة. ثم يتوقف عند البعد الأكاديمي: عودة أبوغزاله إلى الجامعات التي درس فيها يوماً، هذه المرة كمحاضر ومتحدث وشاهد على تجربة طويلة، وطبيعة الحوار الذي يدور بينه وبين الأجيال الجديدة من الطلاب. ويعرّج على البعد الإعلامي: حضوره في المؤتمرات الصحفية والشاشات اللبنانية، وطريقته الفريدة في تبسيط المعقّد ومصارحة الرأي العام بحقائق قد تكون مؤلمة. وأخيراً، يسلّط الضوء على البعد الفكري والرؤيوي: كيف يقرأ أبوغزاله أزمات لبنان المتلاحقة؟ وأين يرى مكامن القوة فيه؟ وكيف يتصوّر مستقبله في ظل الثورة الصناعية الرابعة والتحوّل الرقمي العالمي؟

لا يكتفي الكتاب بجمع الوقائع وسردها، بل يسعى إلى وضعها في سياق أوسع يربط بين الخاص والعام. فسيرة الطفل الفلسطيني الذي وجد في لبنان ملاذاً ثم في بيروت مختبراً للعلم والعمل، تتقاطع تقاطعاً عميقاً مع سيرة وطن صغير المساحة كثير الأزمات، لا يكفّ رغم كل ما يتعرض له من ضربات عن إنتاج المعرفة والإبداع والمبادرة. في تلك المساحة المشتركة بين السيرتين – سيرة الفرد وسيرة البلد – يصبح مشروعاً ومفيداً أن نتأمل "لبنان في عيون طلال أبوغزاله"، لا كلوحة عاطفية معلّقة على جدار الحنين والذكريات، بل كرؤية عملية تفتّش دائماً عن الفرصة في قلب العاصفة، وعن بذرة البناء وسط أنقاض الهدم.

برهان الأشقر

”جئت لأساعد أهلي وبلدي الثاني لبنان العظيم الذي اخترع الحرف والعملة، وهذا واجب أؤديه تجاه البلد الذي احتضنني منذ جئت لاجئاً من فلسطين“...

طلال أبوغزاله

الفصل 1: الجذور والبدايات

من يافا إلى الجنوب

بدأت الحكاية بعيداً عن لبنان، في مدينة لم تكن تعرف أنها تعيش أيامها الأخيرة. يافا الفلسطينية، عروس الساحل المطلّة على البحر المتوسط، كانت قبل النكبة واحدة من أهم المدن العربية وأكثرها حيوية. مدينة تعجّ بالحركة والتجارة، ترسو على مرفئها السفن القادمة من كل أنحاء المتوسط، وتفوح من بساتينها رائحة البرتقال التي ستصبح لاحقاً رمزاً لكل ما فُقد. في أحيائها القديمة المتشابكة كالأصابع، كانت تتجاور الكنائس والمساجد والأسواق والمدارس ومكاتب الصحف ودور السينما، في نسيج اجتماعي غني لا يعرف الانغلاق. وفي شوارعها الممتدة بين البحر والبساتين، كان الأطفال يلعبون بلا هموم تحت سماء فلسطينية لم تكن قد تلوّثت بعد بدخان الحرب.

هناك، في تلك المدينة التي ستصبح بعد سنوات قليلة عنواناً للفقدان الكبير، وُلد طلال أبوغزاله. وفي أحيائها تفتّحت عيناه للمرة الأولى على عالمٍ بدا آمناً ومستقراً وطبيعياً – عالمٍ له سقف وجدران وعائلة وجيران ورائحة مألوفة. عالمٍ لم يكن الطفل الصغير يعلم أنه سيتبخّر ذات صباح كأنه لم يكن.

لكن ذلك الاستقرار كان يقف على أرضٍ رجراجة. ففي الأفق البعيد، كانت سحب السياسة الدولية تتكثّف، وكانت الخطط تُرسم في عواصم بعيدة لتغيير وجه فلسطين إلى الأبد. وحين جاء عام 1948، انقلب كل شيء. تحوّلت يافا – كمعظم المدن والقرى الفلسطينية – من مكان يُعاش فيه إلى ذكرى تُروى. حُمل الأطفال على عجل، وأُقفلت الأبواب على أمل العودة القريبة التي لن تتحقق. تُركت البيوت بكل ما فيها من تفاصيل حياة كاملة: صور العائلة على الرفوف، والأواني في المطبخ، والثياب في الخزائن، ودفاتر المدرسة التي لم تكتمل فصولها، والأحلام الصغيرة التي لم تجد من يحققها. مشى الناس في طوابير طويلة على الطرقات الترابية، يحملون أطفالهم على أكتافهم وقلقهم في صدورهم، لا يعرفون إلى أين يذهبون ولا متى يعودون.

انضمت عائلة أبوغزاله إلى تلك الموجة القاسية من التهجير القسري. واختارت لبنان وجهة لها – البلد القريب جغرافياً الذي كان يفتح ذراعيه، رغم محدودية إمكاناته وضيق مساحته وتعقيدات تركيبته، أمام أفواج اللاجئين الهاربين من نار الحرب. لم يكن الاختيار مبنياً على حسابات معقّدة أو خطط مدروسة. كان قراراً اتخذته عائلة

مذعورة في لحظة خوف: أي مكان آمن يكفي، أي سقف يحمي من المطر والرصاص، أي أرض لا تُقصف.

هكذا وجد الفتى الصغير نفسه ينتقل، بين ليلة وضحاها تقريباً، من مدينة بحرية مزدهرة تنبض بالتجارة والحياة، إلى قرية صغيرة هادئة في الجنوب اللبناني قرب مدينة صيدا. الفارق بين العالمين كان صادماً بكل المقاييس. بدلاً من بيت العائلة الفسيح في يافا، بيتٌ متواضع بجدران خشنة وسقف واطئ. بدلاً من بساتين البرتقال التي تمتد على مدّ النظر، حقول زيتون ضيقة وتلال جرداء. بدلاً من ضجيج المدينة الحيّ المألوف – أصوات الباعة والسيارات والأطفال والبحر – صمت القرية الذي لا يقطعه إلا نباح كلب بعيد أو صياح ديك في الفجر.

لم يكن هناك ما يشبه حياة ما قبل النكبة إلا في شيء واحد: حضور العائلة كحصنٍ أخير. الأب والأم والإخوة، متلاصقين في مساحة ضيقة، يحاولون أن يعيدوا نسج شيء يشبه الحياة الطبيعية في ظروف لا شيء فيها طبيعي. كان الدفء العائلي هو الخيط الوحيد الذي يربط الماضي بالحاضر، والوحيد الذي يمنح هذا الحاضر الغريب شيئاً من المعنى.

الجنوب اللبناني: قسوة وبذرة أمل

في الجنوب اللبناني، تشابكت في وجدان الطفل مشاعر لا يسهل فرزها ولا تسميتها. تحت سقف ذلك البيت البسيط، ذاق للمرة الأولى طعم الفقر بمعناه اليومي العاري، بعيداً عن أي تنظير أو رومانسية. الفقر هنا لم يكن مفهوماً مجرداً يُقرأ عنه في الكتب. كان واقعاً يومياً يتجلّى في تفاصيل صغيرة لكنها قاسية: في الثياب القليلة التي يجب أن تكفي لكل المواسم، وفي الطعام الذي يجب تقسيمه بعناية ليصل إلى كل الأفواه، وفي الحذاء الذي يجب إصلاحه مرات قبل التفكير في شراء غيره، وفي المصروف المدرسي الذي يحتاج كل مرة إلى معجزة صغيرة لتوفيره.

وفوق قسوة الفقر المادي، كان يرقد شعورٌ أثقل وأعمق: الإحساس بفقدان الوطن. ذلك الألم الغامض الذي يصعب على طفل أن يضع له اسماً دقيقاً، لكنه يشعر به في كل لحظة. يشعر به حين يسمع أمه تتحدث عن يافا بصوت يختنق. ويشعر به حين يرى أباه يحدّق في الفراغ بعينين غائبتين. ويشعر به حين يسأله أطفال القرية: "من أين أنت حقاً؟" فلا يعرف إن كان الجواب "من يافا" أم "من هنا" أم "من لا مكان."

لكن الحكاية لم تكن حكاية ألم فحسب. فعلى الجانب الآخر من تلك القسوة، في المنطقة التي لا تصلها عدسات الكاميرات ولا أقلام المؤرخين عادةً، كانت بذرة طموح تتفتّح ببطء شديد في أعماق الفتى. بذرة لا يمكن تفسيرها بسهولة – ربما هي غريزة البقاء في أنقى صورها، أو ربما هي تلك الشرارة الغامضة التي تُولد أحياناً من رحم الحرمان ذاته. وكأن النقص في كل شيء حوله أيقظ فيه رغبة عارمة في التعويض، رغبة لا تهدأ في تجاوز كل الحدود التي فرضتها عليه الظروف دون إذنه.

هذا التناقض – بين القسوة الخارجية والطموح الداخلي – سيصبح لاحقاً أحد المفاتيح الأساسية لفهم شخصية طلال أبوغزاله. فالرجل الذي سيؤسس لاحقاً واحدة من أكبر المجموعات المهنية في العالم العربي لم يخرج من بيئة رخاء ورفاهية. خرج من بيئة فقر ولجوء، ومن تلك البيئة بالذات استمدّ الوقود الذي سيدفعه عبر عقود من العمل الدؤوب الذي لا يعرف التوقف.

مقاعد العلم الأولى

في مدارس الجنوب الرسمية، جلس طلال على مقاعد خشبية متآكلة من كثرة الاستعمال، يتقاسم الدروس مع زملاء لبنانيين وفلسطينيين. كانت الصفوف مكتظة في الغالب، والكتب المدرسية قليلة يتناوب عليها التلاميذ، والوسائل التعليمية شبه معدومة. المعلمون أنفسهم كانوا يعملون بأجور هزيلة وفي ظروف لا تشجّع على الإبداع. لم تكن تلك المدارس، بأي معيار موضوعي، بيئة مثالية للتعلّم.

لكن فوق كل ذلك النقص المادي، كان يسطع شيءٌ أقوى وأبقى من الجدران والمقاعد والكتب. شيء لا يُشترى بالمال ولا يتوفّر بالضرورة في أفخم المدارس: إيمانٌ فطري عميق بأن العلم هو الثروة الوحيدة التي لا يستطيع أحد مصادرتها. أدرك الفتى، وهو لا يزال في سنواته المبكرة – ربما بالحدس أكثر منه بالتفكير الواعي – أن ما يحمله في رأسه من معرفة لن يستطيع جيش أن ينتزعه، ولن تستطيع حرب أن تدمّره، ولن يستطيع فقر أن يمحوه. كل شيء آخر يمكن أن يُفقد – البيت والأرض والمال والوطن – لكن ما تعلّمه الإنسان يبقى معه أينما ذهب.

يروي أبوغزاله أن كلماتٍ سمعها ذات يوم من معلّم لبناني في إحدى تلك المدارس البسيطة غيّرت مسار تفكيره بالكامل. لم يكن ذلك المعلم مشهوراً ولم يكن اسمه ليُذكر

في كتب التاريخ. لكنه قال للفتى اللاجئ بكلمات بسيطة كشربة ماء في يوم حار: "الفقر ليس قدراً أبدياً يا بني. والمستقبل يمكن أن يكون مختلفاً تماماً عمّا تعيشه اليوم – لكن بشرط واحد: أن تتمسك بالعلم والعمل ولا تتركهما مهما حصل."

بدت الجملة عادية في ظاهرها، من ذلك النوع الذي يقوله المعلمون لتلاميذهم كل يوم دون أن يتوقف أحد عندها طويلاً. لكنها وقعت في نفس ذلك الفتى بالذات كحجرٍ يُلقى في بركة ساكنة: أحدثت موجات دائرية اتسعت مع الزمن حتى غطّت سطح حياته بأكمله. تحوّلت تلك الكلمات مع السنين إلى ما يشبه العقيدة الشخصية التي لا تتزعزع ولا تقبل المساومة – عقيدة ظلّ يحملها ويبشّر بها في كل محطة من محطات رحلته الطويلة: من صيدا إلى بيروت، ومن بيروت إلى عمّان، ومن عمّان إلى بقية العالم.

كان ذلك المعلم اللبناني المجهول، من حيث لا يدري ربما، يمنح الطفل اللاجئ أغلى هدية يمكن أن يمنحها إنسان لآخر: الإيمان بأن التغيير ممكن. وسيظلّ أبوغزاله يذكر ذلك المعلم في محاضراته وكتاباته بعد عقود، كدليل حيّ على أن كلمة واحدة صادقة من معلّم في مدرسة متواضعة يمكن أن تصنع فرقاً أكبر مما تصنعه مليارات تُنفق على مبانٍ فاخرة بلا روح.

بيروت والجامعة

مع مرور السنوات واقتراب عتبة الشباب، بدأت خريطة حياة طلال أبوغزاله ترتسم من جديد. لم يعد الجنوب اللبناني بقراه الهادئة ومدارسه المتواضعة يتّسع لطموح فتى يتّقد في داخله شيء لا يهدأ. كان لا بدّ من الانتقال إلى مكان أوسع وأغنى بالفرص. وكان ذلك المكان هو بيروت – العاصمة التي لم تكن في تلك الحقبة مجرد مدينة عادية، بل ظاهرة استثنائية في المنطقة بأسرها.

الانتقال من القرية الجنوبية إلى بيروت كان انتقالاً بين عالمين يكادان لا يتشابهان في شيء. من السكون إلى الصخب، ومن البساطة إلى التعقيد، ومن الأفق المحدود إلى الأفق المفتوح على كل الاحتمالات. كان الشاب اللاجئ يدخل مدينة تُلقّب بعروس الشرق وسويسرا العرب وباريس المتوسط – ألقاب لم تكن مبالغة حينها بل توصيف دقيق لمدينة تحتل موقعاً فريداً على خريطة المنطقة.

في قلب ذلك المناخ الفوّار، التحق الشاب بالجامعة الأميركية في بيروت لدراسة إدارة الأعمال. لم يكن الالتحاق بتلك الجامعة تحصيلاً حاصلاً لابن عائلة لاجئة تكافح لتوفير أساسيات الحياة. كان إنجازاً بحد ذاته يعكس إصراراً استثنائياً على المضي في طريق العلم مهما كانت العقبات. ولم يكن اختيار إدارة الأعمال كتخصص قراراً عشوائياً أو وليد الصدفة. كان خياراً واعياً نابعاً من حدس مبكر بأن فهم لغة المال والمؤسسات والأسواق هو المفتاح الذي سيفتح أبواباً لا تفتحها مفاتيح أخرى.

بالنسبة إلى شاب قادم من بيئة جنوبية بسيطة، معتاد على إيقاع القرية الهادئ ومدارسها الرسمية المتواضعة، كان الدخول إلى حرم الجامعة الأميركية أشبه بالولوج إلى كوكب مختلف. كل شيء في هذا المكان كان يتحدث بلغة لم يألفها من قبل. لغة التدريس الإنجليزية التي تفرض إيقاعاً فكرياً مغايراً تماماً لما اعتاد عليه في المدارس العربية. والمناهج الأكاديمية المتقدمة التي لا تكتفي بتلقين المعلومات بل تحفّز الطالب على التساؤل والتحليل والنقد وبناء الرأي المستقل. والأساتذة القادمون من ثقافات مختلفة – أميركيون وبريطانيون وفرنسيون وعرب من بلدان عدة – يحملون معهم مدارس فكرية متنوعة ومنهجيات بحثية متعددة. والزملاء الذين ينتمون إلى طبقات اجتماعية متباينة: أبناء عائلات ثرية من بيروت والخليج، وأبناء عائلات متوسطة من المدن اللبنانية، وأبناء لاجئين مثله يحملون حقائب خفيفة وأحلاماً ثقيلة.

كل هذا التنوع فرض على الشاب تحديات كبيرة في البداية. كان عليه أن يثبت نفسه أكاديمياً في بيئة تنافسية لا ترحم، وأن يتأقلم اجتماعياً مع فسيفساء بشرية لم يعرف مثلها من قبل، وأن يتغلّب على حاجز اللغة، وأن يموّل دراسته في ظروف مادية شديدة الضيق. لكن تلك التحديات ذاتها كانت تصقله وتشحذه كالسيف على حجر المسنّ. كل عقبة يتجاوزها كانت تزيده صلابة وتعمّق فيه اليقين بأنه يسير في الاتجاه الصحيح.

لم تكن إدارة الأعمال، في عينيه، مجرد تخصص أكاديمي يؤدي في نهايته إلى وظيفة مكتبية مريحة. رآها كنافذة مفتوحة على فهم أعمق لكيفية حركة العالم الحقيقي: كيف تُنشأ المؤسسات وتنمو أو تتراجع، وكيف تتشكّل الأسواق وتتحوّل، وكيف يُدار المال ويُستثمر أو يُبدّد، وكيف تتخذ الشركات قراراتها الكبرى، وكيف يتفاعل الاقتصاد مع السياسة والمجتمع والتكنولوجيا. كان يدرس كل هذا وفي ذهنه سؤال خفي لا يتوقف عن الطرق: كيف يمكنني أن أستخدم هذه المعرفة لأبني شيئاً حقيقياً؟ شيئاً يغيّر واقعي وواقع من حولي؟

بيروت المعلّمة الثانية

لكن بيروت لم تكن مجرد جامعة تُعطي شهادة وتُخرّج طلاباً. كانت بحد ذاتها مدرسة موازية لا تقل ثراءً عن أي مؤسسة أكاديمية، بل ربما تفوقها في بعض الدروس. كانت المدينة ذاتها كتاباً مفتوحاً يتعلّم منه الشاب كل يوم شيئاً جديداً.

في شوارع الحمراء والأشرفية ورأس بيروت، حيث كانت المكتبات تتجاور مع المقاهي، والصحف تتراكم على الأرصفة كل صباح، اطّلع على التيارات الفكرية والسياسية التي تتنازع رسم ملامح المنطقة: القومية العربية بأحلامها الكبيرة ووعودها العريضة، والاشتراكية بنقدها الحاد للطبقية والاستغلال، والليبرالية بدفاعها عن الحرية الفردية والسوق المفتوح، والتيارات الإسلامية بمشروعها البديل. كانت بيروت في تلك الحقبة ساحة حرة لكل هذه الأفكار، تتصارع فيها على صفحات الصحف وفي حلقات النقاش في المقاهي وفي الندوات الجامعية والأمسيات الثقافية.

ولأن الشاب يحمل في داخله جرح اللجوء الفلسطيني وقلق من لا يملك هوية واضحة ولا وطـناً يعود إليه، كان لتلك النقاشات وقعٌ خاص في نفسه يختلف عن وقعها في نفوس زملائه. كانت تدفعه نحو أسئلة لا إجابات سهلة لها: مَن أنا وسط كل هذه التيارات والصراعات؟ أين موقعي كفلسطيني لاجئ في لبنان، كعربي في عالم يتغيّر، كإنسان يريد أن يصنع شيئاً ذا قيمة؟ ما الذي يمكنني تقديمه وأنا لا أملك شيئاً سوى ما في رأسي؟

هذه الأسئلة لم تكن أسئلة فلسفية ترفيّة. كانت أسئلة وجودية حارقة ترافقه في يومه وليله، وستظلّ تلاحقه طوال حياته – وإن تغيّرت صيغتها مع كل مرحلة جديدة.

المسؤولية المبكرة

رغم كل ما حملته السنوات اللبنانية من معارف وتجارب وعلاقات تتشكّل ووعي يتفتّح، لم تكن سنوات رخاء بالمعنى المادي. الكفاف كان هو أقصى ما يمكن تحقيقه في أحسن الأحوال. ظلّ الفقر حقيقة يومية ضاغطة تلاحق العائلة وتثقل كاهل الشاب، والقلق على الغد رفيقاً لا يغادر. كان عليه أن يدبّر مصروفه بعناية مؤلمة، وأن يعمل إلى جانب دراسته لتوفير ما يحتاجه، وأن يتحمّل أعباءً أكبر من سنّه بكثير.

لكن أبوغزاله اختار مبكراً – وربما كان الاختيار هنا أقرب إلى الغريزة منه إلى القرار المدروس – أن يحوّل قسوة ظروفه إلى وقود يدفعه إلى الأمام بدلاً من أن يشلّه ويحبسه في دائرة الشكوى والانتظار. رفض بكل كيانه أن يقبل دور الضحية السلبية التي تندب حظها وتمدّ يدها وتنتظر من يحلّ مشاكلها. تبنّى بدلاً من ذلك دور الإنسان الفاعل الذي يكدح ويثابر ويعتصر من كل يوم ما يمكن اعتصاره من علم وخبرة وعلاقات مفيدة. رأى في كل خطوة تعليمية استثماراً طويل الأمد يتراكم ببطء لكنه سيؤتي ثماره حتماً، تماماً كالشجرة التي تحتاج سنوات من الصبر قبل أن تعطي أول ثمارها.

كان اختياره لإدارة الأعمال تخصصاً جامعياً تعبيراً صادقاً عن رغبة واعية في امتلاك مفاتيح عالم المؤسسات والشركات والأسواق. لم يكن يريد أن يكون موظفاً يؤدي ما يُطلب منه وينتظر راتبه في آخر الشهر. كان يريد أن يفهم كيف تعمل الآلة الاقتصادية من الداخل، وأن يمتلك الأدوات التي تتيح له بناء شيء خاص به – شيء يحمل اسمه ورؤيته ويخدم أهدافاً أكبر من مجرد الكسب الشخصي.

على امتداد تلك السنوات اللبنانية، نسج في داخله علاقة معقّدة ومتعددة الطبقات مع لبنان. لم يعد هذا البلد مجرد محطة لجوء اقتضتها قسوة السياسة والتاريخ. تحوّل إلى مكان تتشابك فيه مشاعر الامتنان مع الوعي النقدي في نسيج لا يمكن فصل خيوطه.

الامتنان كان حقيقياً وعميقاً: امتنان لبلد احتضن طفولته وشبابه حين لم يكن له مكان آخر يذهب إليه. بلد وفّر له مقعداً في المدرسة رغم ازدحام المدارس وشحّ الموارد. بلد أتاح له فرصة الالتحاق بجامعة عريقة وفّرت له نافذة على عالم أرحب وأوسع. بلد منحه مساحة للنمو والتشكّل والاكتشاف في مرحلة حرجة من عمره.

والوعي النقدي كان حاضراً أيضاً، لأن الشاب لم يكن من النوع الذي يغمض عينيه عمّا لا يريد رؤيته. لم يغب عنه يوماً ما يعانيه هذا البلد ذاته من اختلالات بنيوية عميقة في السياسة والاقتصاد والإدارة. رأى كيف تتحكّم الطائفية في توزيع المناصب والموارد. ورأى كيف يتعايش الثراء الفاحش مع الفقر المدقع في المدينة الواحدة. ورأى كيف تُهدر الطاقات وتضيع الفرص بسبب الفساد والمحسوبيات. كل ذلك كان يختزنه في ذاكرته، يحلّله بهدوء ويستخلص منه دروساً ستظهر لاحقاً في رؤيته لمستقبل لبنان والمنطقة.

خيط لا ينقطع

لاحقاً، حين ستقوده مسارات العمل والطموح إلى خارج لبنان – إلى عمّان أولاً ثم إلى عواصم عربية وعالمية أخرى – لن ينقطع ذلك الخيط الذي يربطه بهذا البلد. سيبقى لبنان حاضراً في ذاكرته كما يحضر طعم الخبز الأول في فم من ذاقه طفلاً. وسيبقى حاضراً في مشروعه كما تحضر البوصلة في يد البحّار.

فهنا، في هذا البلد الصغير المتناقض الجميل المعذّب، تمتد جذور أساسية من حكاية الصعود الطويل من القاع إلى القمة. وعلى ترابه الجنوبي وفي قاعات جامعاته ومقاهي عاصمته، تشكّلت أولى ملامح رؤيته للاقتصاد القائم على الخدمات المعرفية والمهنية. ومن تجربته المباشرة فيه – بوجهيها: المنحة والألم – وُلدت قناعته الراسخة التي ظـلّ يبشّر بها طوال حياته: أن المعرفة هي طوق النجاة الحقيقي الوحيد، للأفراد كما للأوطان، في السرّاء كما في الضرّاء.

الفصل 2: بيروت الخمسينيات والستينيات

مدينة لا تشبه غيرها

لا يمكن فهم ما صار إليه طلال أبوغزاله دون فهم المدينة التي احتضنت سنوات تكوّنه الحاسمة. بيروت الخمسينيات والستينيات لم تكن مدينة عادية بأي مقياس. كانت حالة استثنائية في المنطقة العربية بأسرها – مدينة تجمع بين متناقضات يصعب أن تجتمع في مكان واحد، لكنها في بيروت كانت تتعايش وتتصارع وتتلاقح في مزيج لا يتكرر.

كانت بيروت في تلك الحقبة أشبه بملتقى طرق كوني مصغّر. على شاطئها الممتد بين الصخور والرمل، كانت تلتقي أمواج المتوسط بأمواج الأفكار القادمة من كل اتجاه. من الغرب تصل الموضات الأدبية والفلسفية والسينمائية الجديدة، ومن الشرق العربي تتدفق القضايا السياسية الكبرى والنقاشات القومية المحتدمة، ومن الداخل اللبناني تتصاعد أسئلة الهوية والانتماء في بلد لا يكف عن البحث عن تعريف لنفسه. كل هذا كان يختلط في شوارع المدينة ومقاهيها وصحفها وجامعاتها، مُنتجاً طاقة فكرية وإبداعية نادرة.

شارع الحمراء: الشريان النابض

لم يكن شارع الحمراء مجرد شارع تجاري في وسط بيروت. كان رمزاً لحقبة بأكملها وعنواناً لأسلوب حياة فريد. على جانبيه تراصّت المقاهي التي ستصبح أسماؤها جزءاً من تاريخ الثقافة العربية: مقهى الهورسشو، ومقهى الويمبي، ومقهى الإكسبرس، ومقهى الموديكا. في تلك المقاهي، كان يجلس الشعراء إلى جانب السياسيين، والصحفيون إلى جانب رجال الأعمال، والطلاب الجامعيون إلى جانب الأساتذة، في خليط بشري لا تفصل بين أطرافه حواجز صارمة.

كان يمكن لشاب مثل طلال أبوغزاله أن يجلس في أحد تلك المقاهي صباحاً يقرأ صحيفة النهار أو الأنوار أو المحرر، فيطّلع في صفحة واحدة على تحليل سياسي عميق لأحداث المنطقة، وعلى مقال اقتصادي عن حركة المصارف اللبنانية، وعلى قصيدة حديثة لشاعر طليعي، وعلى خبر عن افتتاح مسرحية جديدة في مسرح بيكاديللي أو صدور رواية عربية عن دار نشر بيروتية. هذا التنوع المتاح في فضاء واحد كان يصقل العقل ويوسّع المدارك بطريقة لا يقدر عليها أي منهج دراسي مهما بلغت جودته.

كانت المكتبات تنتشر على أرصفة الحمراء وبلس وسواها كالفطر بعد المطر. مكتبات تعرض آخر الإصدارات بالعربية والفرنسية والإنجليزية، من الفلسفة إلى الاقتصاد، ومن الرواية إلى الشعر، ومن العلوم السياسية إلى علم النفس. وكان ثمن الكتاب في متناول الطالب الجامعي في الغالب، مما جعل القراءة عادة يومية لا ترفاً محصوراً بالنخبة. في تلك المكتبات، وسّع الشاب القادم من الجنوب قراءاته إلى ما هو أبعد بكثير من مقررات إدارة الأعمال. قرأ في التاريخ والسياسة والفلسفة والأدب، وبنى لنفسه ثقافة عامة متينة ستظهر آثارها لاحقاً في طريقة تفكيره وخطابه.

المصارف والمال: درس في الاقتصاد الحيّ

لم تكن بيروت في تلك الحقبة عاصمة ثقافية فحسب. كانت أيضاً – وربما قبل كل شيء – عاصمة مالية إقليمية من الطراز الأول. كان القطاع المصرفي اللبناني في أوج ازدهاره، يستقطب رؤوس الأموال من كل أنحاء المنطقة بفضل قوانين السرية المصرفية والاستقرار النسبي والحرية الاقتصادية الواسعة. عشرات المصارف اللبنانية والأجنبية فتحت فروعها في شوارع بيروت، محوّلة المدينة إلى ما يشبه خزنة إقليمية كبرى.

بالنسبة إلى شاب يدرس إدارة الأعمال، كان هذا المشهد المصرفي المزدهر بمثابة مختبر حيّ يتعلّم منه كل يوم دروساً لا تُدرّس في قاعات المحاضرات. رأى بعينيه كيف تتحرك رؤوس الأموال وكيف تُدار المخاطر وكيف تُبنى الثقة بين المؤسسة المالية وعملائها. ورأى أيضاً – بعين ناقدة بدأت تتشكّل مبكراً – كيف يمكن لغياب الرقابة والشفافية أن يحوّل هذا الازدهار إلى فقاعة هشة قابلة للانفجار. دروسٌ سيستعيدها بعد عقود حين تنهار المنظومة المصرفية اللبنانية في واحدة من أسوأ الأزمات المالية التي شهدها العالم.

إلى جانب المصارف، كانت شركات التأمين والمكاتب المهنية الكبرى ووكالات الإعلان وشركات التجارة والاستيراد والتصدير تتخذ من بيروت مقراً إقليمياً لها. كان الشاب يرى هذا كله ويختزنه في ذاكرته: بلدٌ صغير بلا نفط ولا ثروات طبيعية ضخمة يستطيع أن يبني اقتصاداً مزدهراً قائماً على الخدمات والمعرفة والموقع الاستراتيجي ورأس المال البشري المتعلّم. هذه الملاحظة البسيطة في ظاهرها ستتحوّل لاحقاً إلى ركيزة أساسية في فكره الاقتصادي ورؤيته لمستقبل المنطقة.

الصحافة والإعلام: صناعة الرأي العام

كانت بيروت في تلك الحقبة عاصمة الإعلام العربي بلا منازع. الصحف اليومية كانت تصدر بالعشرات: صحف سياسية ذات توجهات مختلفة ومتصارعة أحياناً، وصحف اقتصادية، ومجلات أدبية وفكرية، ومجلات فنية ونسائية ورياضية. وكلها تُطبع في بيروت وتُوزّع في أنحاء العالم العربي، من الخليج إلى المغرب.

كان الإعلام اللبناني يتمتع بهامش حرية نادر في المنطقة. يمكن للصحفي أن يكتب ما يشاء تقريباً دون أن يخشى الاعتقال أو الإغلاق – وهو وضع لم يكن متاحاً في معظم العواصم العربية الأخرى. هذه الحرية استقطبت إلى بيروت كتّاباً ومفكرين ومعارضين سياسيين من كل مكان، وجعلت منها منبراً حراً يُسمع صوته في المنطقة بأسرها.

بالنسبة إلى الشاب طلال أبوغزاله، كان هذا المناخ الإعلامي الحرّ درساً يومياً في أهمية حرية التعبير وعلاقتها بالتنمية والإبداع. رأى كيف أن الحرية تجذب العقول والأموال والمواهب، وكيف أن غيابها يطردها. هذا الدرس سيظهر لاحقاً بوضوح في خطاباته الدولية حين يربط بين الحرية والاقتصاد المعرفي، ويؤكد أن الابتكار لا يزدهر إلا في مناخ حرّ.

الجامعات: بوتقة الثقافات

لم تكن الجامعة الأميركية التي التحق بها أبوغزاله الجامعة الوحيدة في بيروت. كانت المدينة تضم منظومة جامعية متنوعة تعكس تنوّع البلد نفسه: الجامعة الأميركية بتوجهها الأنغلوساكسوني، وجامعة القديس يوسف بتراثها الفرنكوفوني العريق، والجامعة اللبنانية الوطنية الحكومية التي تستوعب أبناء الطبقات الشعبية، والكلية الحربية والمعاهد التقنية والمدارس المهنية. هذا التنوع الجامعي أنتج خريجين يتقنون لغات عدة ويحملون ثقافات متعددة، مما جعل لبنان "مصنع كفاءات" للمنطقة العربية بأسرها.

في هذا المناخ الجامعي المتنوع والمتنافس، تعلّم الشاب أن المعرفة ليست حكراً على لغة واحدة أو ثقافة واحدة أو منهج واحد. تعلّم قيمة التعدد والانفتاح على المدارس الفكرية المختلفة. وتعلّم أن الجامعة ليست مجرد مبنى يحصل فيه الطالب على شهادة، بل مجتمع مصغّر يتشكّل فيه الإنسان بأبعاده المعرفية والاجتماعية والنفسية كلها.

الفن والموسيقى والمسرح: النبض الناعم

لم تكن بيروت الخمسينيات والستينيات مدينة مال وسياسة وصحافة فحسب. كانت أيضاً مدينة فن وموسيقى ومسرح وسينما. على مسارحها أقيمت مهرجانات بعلبك الدولية التي استقطبت فنانين عالميين من أرفع المستويات. في استوديوهاتها سُجّلت أغانٍ ستصبح جزءاً من الذاكرة الجماعية العربية. وفي صالات سينماها عُرضت أفلام عربية وعالمية شكّلت وعي أجيال.

هذا البعد الفني والثقافي، وإن بدا بعيداً عن عالم الأرقام والمحاسبة الذي سيتخصص فيه أبوغزاله لاحقاً، ترك أثره في تشكيل شخصيته. منحه تقديراً عميقاً للإبداع بكل أشكاله، وفهماً مبكراً لقيمة المحتوى الثقافي كمنتج اقتصادي وليس مجرد ترفيه. هذا الفهم سيتجلّى بوضوح لاحقاً في اهتمامه الشديد بالملكية الفكرية ودفاعه المستميت عن حقوق المبدعين.

المدينة كأستاذ

في المحصلة، لم تكن بيروت بالنسبة إلى طلال أبوغزاله مجرد خلفية جغرافية لسنوات الدراسة. كانت أستاذاً بذاتها، يعلّم دروساً لا تُعلّمها الجامعات. علّمته أن البلد الصغير يمكن أن يكون كبيراً إذا راهن على عقول أبنائه وحريتهم وتنوعهم. وعلّمته أن الاقتصاد الحقيقي يمكن أن يقوم على الخدمات والمعرفة لا على المصانع والمناجم. وعلّمته أن الحرية والإبداع توأمان لا ينفصلان. وعلّمته أيضاً – بالمثال السلبي أحياناً – أن كل هذه المزايا يمكن أن تُهدر وتضيع إذا غاب الحكم الرشيد وانتشر الفساد وتغلّبت المصالح الضيقة على المصلحة العامة.

حين غادر أبوغزاله بيروت لاحقاً متوجهاً إلى عمّان وإلى العالم الأوسع، حمل معه بيروت الخمسينيات والستينيات كاملة في وجدانه. لم يحمل منها ذكريات شخصية فحسب، بل حمل منظومة قيم ورؤية للعالم ونموذجاً لما يمكن أن يكون عليه البلد العربي الناجح – ولما يمكن أن يخسره إذا أساء إدارة نفسه. تلك المدينة – بمقاهيها ومصارفها وجامعاتها وصحفها ومسارحها ومكتباتها وتناقضاتها – هي التي صنعت الرجل الذي سيصنع لاحقاً واحدة من أكبر المجموعات المهنية في العالم العربي.

الفصل 3: رؤية أبوغزاله للبنان

صوتان في رجل واحد

حين يتحدث طلال أبوغزاله عن لبنان اليوم – بعد عقود طويلة من التجارب والمناصب والعلاقات الدولية التي امتدت عبر القارات – يتحدث بصوتين يتداخلان في نبرة واحدة. الصوت الأول هو صوت الذاكرة الشخصية: صوت الفتى الذي عرف الجنوب اللبناني وقراه ومدارسه، وعرف بيروت وجامعاتها ومقاهيها وشوارعها. والصوت الثاني هو صوت الخبير الدولي الذي عرف عشرات العواصم وقارن بين تجارب اقتصادية مختلفة، ويملك من الأدوات التحليلية ما يتيح له قراءة المشهد بعين باردة حتى حين يكون القلب ساخناً.

هذا التداخل بين الحنين والتحليل، بين القلب والعقل، يمنح حديثه عن لبنان طابعاً مختلفاً عن حديث أي خبير اقتصادي آخر. فهو لا يتحدث عن لبنان كحالة دراسية يقرأها في تقرير ويحلّلها بأرقام مجردة. يتحدث عنه كجزء من تكوينه الشخصي، كبلدٍ منحه شيئاً ثميناً في لحظة ضعف، ويشعر أنه مدين له بشيء في المقابل.

لكن هذا الشعور بالمديونية لا يعمي عينيه عن الواقع. في مقابلاته وندواته ومحاضراته، لا يقدّم لبنان كقضية عاطفية تستدرّ الدموع والحنين، ولا يصوّره كحالة ميؤوس منها لا أمل فيها كما يحلو لكثيرين في لحظات الإحباط. يصرّ بدلاً من ذلك على زاوية نظر أكثر تركيباً وأكثر إنصافاً: بلدٌ مثقل فعلاً بأزمات واختلالات بنيوية لا يمكن إنكارها أو التقليل من خطورتها، لكنه يختزن إمكانات هائلة لا تقلّ واقعية عن أزماته. والسؤال ليس: هل يوجد أمل؟ بل: هل توجد إرادة كافية لتحويل هذه الإمكانات إلى واقع؟

لبنان بين القلب والعقل

في نظر أبوغزاله، لا يمكن فهم لبنان إلا من خلال هذا التشابك الغريب بين عناصر تبدو متناقضة لكنها تتعايش في المكان نفسه. بلدٌ أصغر من بعض المدن الكبرى في العالم مساحةً وسكاناً، محدود الموارد الطبيعية إلى حدٍّ كبير، يعيش على وقع أزمات سياسية لا تنتهي وانقسامات طائفية تنخر في جسمه منذ عقود. لكنه يمتلك في الوقت ذاته طاقات بشرية استثنائية لا تتناسب مع حجمه الجغرافي: انتشاراً اغترابياً في كل قارات العالم يفوق عدد المقيمين على أرضه، وتراكماً معرفياً وثقافياً جعل من اسمه علامة فارقة في المنطقة، وتاريخاً طويلاً في ريادة الأعمال والتجارة والخدمات المالية والإعلام والتعليم.

ما يستوقف أبوغزاله في هذا البلد هو تلك القدرة العجيبة على الصمود والإنتاج حتى في أحلك الساعات. بلدٌ يقف مراراً وتكراراً على حافة الهاوية – حروب أهلية واجتياحات وانهيارات اقتصادية وانفجارات مدمّرة – لكنه يظل، بطريقة تتحدى المنطق، ينتج مبادرات ومشاريع وإبداعات فردية وجماعية. وكأن الأزمة نفسها تستفزّ في اللبنانيين طاقات كامنة لا تظهر في أوقات الرخاء.

حين يُسأل عن موقع لبنان الحقيقي في العالم العربي، يرفض أن يُقاس حجم هذا البلد بالكيلومترات المربعة أو بتعداد السكان. الحجم الفعلي للبنان – كما يراه – يكمن في

ما يملكه من رأسمال بشري متعلّم ومتعدد اللغات والثقافات، وفي قدراته الفكرية والمهنية المتراكمة عبر أجيال. يذكّر محاوريه دائماً بأن هذا البلد سبق أن بنى ازدهاراً اقتصادياً حقيقياً في مراحل سابقة من تاريخه، ويرى أن بإمكانه استعادة دور محوري إذا أعاد بناء نموذجه الاقتصادي على أسس تتلاءم مع متطلبات العصر الجديد.

اقتصاد المعرفة: الفرصة الكبرى

منذ سنوات طويلة، يحمل أبوغزاله راية ما يسمّيه "اقتصاد المعرفة" أينما حلّ وفي كل منبر يقف عليه. يطرح هذا المفهوم في المؤتمرات الدولية والعربية، ويشرحه في اللقاءات الإعلامية، ويبشّر به في محاضراته الجامعية. يعني به ذلك النمط الاقتصادي الذي لا يراهن على استخراج المواد الخام من باطن الأرض ولا على خطوط الإنتاج الصناعي التقليدية، بل يقوم أساساً على إنتاج المعرفة وتطويرها وتداولها وتحويلها إلى قيمة اقتصادية قابلة للتصدير.

في هذا الإطار، يرى أن لبنان مرشّح طبيعي ليكون لاعباً مهماً في هذا الاقتصاد الجديد. المقومات الأساسية موجودة: رأسمال بشري متعلّم ومتعدد اللغات، وتقاليد عريقة في ريادة الأعمال والتجارة، وموقع جغرافي متميز على تقاطع الشرق والغرب، وانتشار اغترابي واسع يمكن أن يتحوّل إلى شبكة علاقات تجارية عالمية. ما ينقص هو عنصران حاسمان: إرادة سياسية صادقة لا تكتفي بالشعارات، ورؤية استراتيجية واضحة تتجاوز ردود الفعل اللحظية إلى التخطيط طويل المدى.

يعرف أبوغزاله جيداً أن لبنان لا يملك ثروات نفطية ضخمة كجيرانه في الخليج، ولا مساحات زراعية شاسعة كمصر أو العراق. لكنه يعرف أيضاً أن هذا البلد أنجب ولا يزال ينجب أعداداً كبيرة من الخريجين والمهنيين والأكاديميين ورواد الأعمال الذين أثبتوا جدارتهم في أصعب الأسواق العالمية. هؤلاء هم الثروة الحقيقية – ثروة لا تنضب إذا أُحسنت رعايتها وتوظيفها.

وإذا كان كثيرون من هؤلاء يغادرون بحثاً عن فرص أفضل في الخارج – وهو نزيف بشري يعاني منه لبنان منذ عقود طويلة – فإن السؤال الذي يطرحه أبوغزاله واضح ومباشر: لماذا لا يتحوّل لبنان نفسه إلى بيئة جاذبة لعقوله وكفاءاته بدلاً من أن يظل محطة عبور يتزوّد منها الراحلون قبل أن يمضوا إلى وجهاتهم النهائية؟

الجواب لا يأتي بالتمنّي ولا بالخطابات الحماسية في المناسبات الوطنية. يأتي عبر مشروع عملي محدد المعالم يقوم على محاور واضحة: إعادة بناء منظومة التعليم من الأساس لتتوافق مع متطلبات عصر المعرفة لا مع متطلبات القرن الماضي. وتطوير البنية التحتية التقنية والرقمية التي لا غنى عنها لأي اقتصاد حديث. وتشجيع الاستثمار في مجالات تكنولوجيا المعلومات والصناعات الإبداعية والخدمات المهنية المتخصصة. وكل ذلك من خلال حوافز قانونية وضريبية وإدارية تجعل من لبنان بيئة تنافسية حقيقية تستقطب المواهب والأموال بدلاً من أن تطردها.

التعليم: الخط الذي لا يُمسّ

لا يكاد أبوغزاله يتحدث عن لبنان دون أن يعرّج على جامعاته ومدارسه. للتعليم في علاقته بهذا البلد مكانة تتجاوز التحليل الاقتصادي البارد إلى البعد الشخصي العميق. فالتعليم هو الذي أنقذه شخصياً من مصير الفقر والتهميش. والتعليم هو ما يراه طوق نجاة لبنان كله. لذلك حين ينظر إلى واقع التعليم في لبنان اليوم، يفعل ذلك بعين خبيرة عاشت التحوّلات وشهدت الصعود والتراجع.

يُبدي تقديراً صادقاً للمستوى الذي بلغته بعض الجامعات اللبنانية وللسمعة الدولية التي اكتسبتها عبر عقود من التميز، وللقدرة التي أثبتتها في تخريج أجيال من الكفاءات تعمل اليوم في مؤسسات عالمية مرموقة في كل القارات. لكنه لا يغمض عينيه عن التحديات الهائلة التي تحاصر هذا القطاع من كل جانب، خصوصاً في ظل الأزمة الاقتصادية الأخيرة التي ضربت كل شيء بما فيه المؤسسات التعليمية. ويلحّ دائماً على ضرورة حماية التعليم واعتباره خطاً أحمر لا يجوز المساس به حتى في أحلك الظروف الاقتصادية. في نظره، الاستثمار في المدرسة والجامعة ليس بنداً قابلاً للتخفيض في ميزانية الدولة. إنه استثمار في مستقبل لبنان ذاته، وأي تقليص فيه يعني قطع الشريان الذي يمدّ البلد بالحياة.

الأزمة والفرصة: وجهان لعملة واحدة

حين يُسأل أبوغزاله عن الأزمات التي يعيشها لبنان، لا يهوّن من شأنها ولا يتظاهر بأنها عابرة. يصفها أحياناً بأنها من بين الأعنف والأقسى على المستوى العالمي في بعض جوانبها، خصوصاً الانهيار المالي الذي محا مدّخرات ملايين اللبنانيين بين ليلة وضحاها. لكنه يرفض بكل قوة خطاب اليأس الذي يحوّل الأزمة إلى حكم نهائي لا استئناف فيه ولا رجعة عنه.

يميل في تحليله إلى مقاربة يراها أكثر واقعية وأكثر إنتاجية من الاستسلام للتشاؤم: أن يلازم كل حديث عن الأزمة حديثٌ موازٍ عن الفرصة الكامنة فيها. ليس هذا تفاؤلاً ساذجاً ولا محاولة لتجميل واقع قبيح. إنه استعادة واعية لدرس تعلّمه على جلده منذ طفولته حين تحوّل من لاجئ لا يملك شيئاً إلى رجل يبني إمبراطورية مهنية: أن أقسى الظروف يمكن أن تتحوّل إلى نقطة انطلاق إذا اجتمعت الإرادة مع المعرفة والعمل.

من هذا المنطلق، ينظر إلى ما يمرّ به لبنان اليوم لا كنهاية طريق مسدود، بل كلحظة مفصلية – مؤلمة نعم، لكنها تحمل في طيّاتها فرصة إجبارية لإعادة النظر في كل شيء: في نموذج الاقتصاد الذي أثبت فشله، وفي طريقة إدارة الموارد التي أدّت إلى الإفلاس، وفي العلاقة مع عالم يتغيّر بسرعة لا تنتظر المتباطئين. ويرى أن الانهيار المالي، رغم فداحة ثمنه البشري والاجتماعي، كشف عيوباً متجذّرة في البنية الاقتصادية كان الجميع يتجاهلها خلال سنوات الرخاء الظاهري. وهذا الانكشاف بالذات – إن أُحسن التعامل معه – قد يفتح الباب لبناء نموذج أكثر متانة وعدالة واستدامة.

الشباب اللبناني: الرهان الأخير

ربما تكون الفئة التي يوجّه إليها أبوغزاله حديثه عن لبنان أكثر من أي فئة أخرى هي فئة الشباب. في كل محاضرة جامعية وكل لقاء مع طلاب وكل حوار مع رواد أعمال ناشئين، يعود موضوع الدور المركزي للشباب في معادلة النهوض كلحن أساسي لا يغيب.

لا يرسم لهم صورة وردية عن بلدٍ مثقل بالأزمات. ولا يبيعهم وعوداً فارغة عن مستقبل مضمون. يقول لهم بصراحته المعهودة إن هذا البلد قد لا يستطيع في المدى القريب أن يعدهم باستقرار كامل أو برخاء مادي مضمون. لكنه يمنحهم شيئاً لا يقلّ قيمة عن ذلك

كله: فضاءً من الحرية النسبية لا يتوفر في كثير من بلدان المنطقة، وإرثاً ثقافياً وتعليمياً ثرياً يفتح لهم أبواب العالم، وشبكة علاقات محلية واغترابية واسعة يمكن أن تتحوّل – إن أحسنوا توظيفها – إلى منصة انطلاق نحو أي مكان يريدون.

ويذكّرهم دائماً بأمر يعتبره جوهرياً: أن كثيراً من أنجح المشاريع في التاريخ – مشاريعه هو ومشاريع غيره من رواد الأعمال حول العالم – انطلقت من ظروف لم تكن أفضل حالاً مما يعيشونه اليوم. وأن الظروف الصعبة ليست عذراً للتوقف، بل قد تكون بالضبط الوقود الذي يصنع الفارق بين من يستسلم ومن ينهض.

رؤية أبوغزاله للبنان تبدو في محصلتها مزيجاً صعباً من الواقعية الصارمة والأمل العنيد. لا يزيّن الصورة ولا يستخفّ بحجم التحديات. لكنه يأبى الاستسلام لسردية الانهيار الشامل الذي لا قيامة بعده. في عمق وجدانه يسكن إيمانٌ بأن هذا البلد – الذي عرفه طفلاً لاجئاً وطالباً جامعياً ورجل أعمال وخبيراً دولياً – يمتلك في نسيجه البشري والثقافي والحضاري ما يكفي من عناصر الحياة لينقذ نفسه. لكن بشرط واحد: أن يُعطى الفرصة الحقيقية لفعل ذلك، وأن يقرر أبناؤه – بأنفسهم ولأنفسهم – أن يتوقفوا عن انتظار المنقذ الخارجي ويبدأوا في صنع خلاصهم من الداخل.

الفصل 4: مؤسسات أبوغزاله في لبنان

العودة إلى المنبع

حين غادر طلال أبوغزاله لبنان في مطلع مسيرته المهنية، لم يحمل معه حقيبة سفر عادية فيها ثياب وأوراق ثبوتية فحسب. حمل في رأسه وقلبه ما هو أثقل وأبقى: وعياً يتنامى بالدور الذي يمكن أن تلعبه الخدمات المهنية والمعرفية في بناء اقتصادات حديثة. ومع تنقّله بين عواصم عربية وأجنبية – من عمّان إلى الكويت إلى مدن أخرى – بدأ ذلك الوعي يتحوّل من فكرة مجردة في الذهن إلى مشروع عملي يتبلور يوماً بعد يوم. وتوّج هذا التبلور بتأسيس "مجموعة طلال أبوغزاله" التي ستصبح لاحقاً واحدة من أكبر المجموعات المهنية في العالم العربي، بمكاتب منتشرة في أكثر من مئة بلد حول العالم.

في هذه الشبكة الهائلة الممتدة عبر القارات، لم يكن المكتب اللبناني مجرد دبّوس إضافي على خريطة التوسع التجاري. كان يحمل معنى أعمق وأكثر خصوصية. كان عودة إلى المنبع، رجوعاً طبيعياً – بل ربما حتمياً – إلى البيئة التي شهدت التكوّن الأول لأفكار صاحب المجموعة وأحلامه. الرجل الذي دخل لبنان يوماً طالباً لاجئاً لا يملك شيئاً يعود إليه الآن على رأس مؤسسة مهنية تحمل اسمه وتنافس على المستوى العالمي. في تلك العودة بُعدٌ رمزي لا يمكن تجاهله: كأنه يقول لذلك البلد الذي احتضنه في لحظة ضعفه: ها أنا أعود لأردّ بعض ما أخذت.

منذ اللحظة التي اتُّخذ فيها قرار فتح مكتب للمجموعة في بيروت، كان واضحاً أن الدافع يتجاوز الحسابات التجارية الصرفة. طبعاً كان هناك منطق اقتصادي سليم وراء القرار: بيروت سوقٌ مهمة في مجال الخدمات المهنية، والشركات اللبنانية تحتاج إلى خدمات تدقيق واستشارات وملكية فكرية بمعايير عالمية. لكن إلى جانب ذلك، كان هناك بُعد إنساني وعاطفي يعرفه أبوغزاله ولا يُنكره: الرغبة في أن يكون حاضراً في المكان الذي صنعه، وأن يساهم في تطوير البيئة المهنية التي تكوّن فيها.

بوابة تعمل في الاتجاهين

وُلدت مجموعة طلال أبوغزاله من إدراك مبكر لحاجة حقيقية في السوق العربية: الحاجة إلى خدمات مهنية عربية الهوية عالمية المعايير. في تلك المرحلة المبكرة من تاريخ المهنة في العالم العربي، كانت الشركات الكبرى التي تحتاج إلى خدمات محاسبية أو استشارية جدّية مضطرة في الغالب للاستعانة بشركات أجنبية – بريطانية أو أميركية – بتكاليف مرتفعة ودون فهم كافٍ للخصوصيات المحلية. رأى أبوغزاله فجوة هائلة يمكن ملؤها: تقديم خدمات مهنية عربية لا تقلّ جودة عن نظيرتها الأجنبية، لكنها أقرب إلى واقع المنطقة وأكثر فهماً لبيئتها القانونية والثقافية والتجارية.

ومع نمو المجموعة وانتشارها عبر العقود، اتضح أن لكل مكتب من مكاتبها دوراً مزدوج الاتجاه. فهو من ناحية ينقل المعايير الدولية المعتمدة إلى بلده ويطبّقها في السوق المحلية. ومن ناحية أخرى يمثّل بلده في الشبكة العربية والدولية الأوسع، فيربط عملاءه المحليين بفرص وأسواق لم يكونوا ليصلوا إليها بمفردهم.

المكتب اللبناني أدّى هذا الدور المزدوج بامتياز خاص نابع من طبيعة السوق اللبنانية ذاتها. فمن ناحية، كان معنياً بتلبية احتياجات بيئة أعمال محلية غنية ومتنوعة تضم مصارف وشركات تأمين ومؤسسات تجارية وصناعية ومنظمات غير حكومية – كلها تحتاج إلى خدمات محاسبية واستشارية وقانونية وتقنية بمعايير لا تقبل التساهل. ومن ناحية أخرى، كان يعمل كجسر يربط العملاء اللبنانيين بالعالم العربي والأوسع: يسهّل توسعهم في أسواق جديدة، ويعرّفهم بالمعايير والأنظمة الدولية التي تحكم عالم المال والأعمال، ويمنحهم من خلال شبكة المجموعة الواسعة وصولاً إلى خبرات وعلاقات لم تكن في متناولهم.

هكذا تشكّل المكتب اللبناني كنقطة التقاء فريدة بين خبرة المجموعة المتراكمة على مدى عقود في بلدان عديدة، وخصوصية الواقع اللبناني بقوانينه المعقدة وإدارته المتشعبة وبيئة أعماله الديناميكية ومناخه الثقافي المنفتح. هذا التلاقي لم يكن ميكانيكياً أو شكلياً. كان تفاعلاً حقيقياً أثمر مع الوقت تبادلاً خصباً بين ما هو عالمي وما هو محلي – تبادلاً أغنى الطرفين وأضاف قيمة لا يمكن أن يولّدها أيٌّ منهما بمفرده.

المحاسبة والتدقيق: أكثر من أرقام

أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر مجموعة طلال أبوغزاله هو مجال المحاسبة والتدقيق والخدمات المرتبطة بهما. في بلد كلبنان، يرتكز جزء كبير من اقتصاده على قطاع الخدمات ويضم شبكة واسعة من المصارف والشركات والمؤسسات التجارية والمالية، يصبح وجود جهة تدقيق مهنية موثوقة وصارمة المعايير ضرورة وجودية لا ترفاً إدارياً.

عبر المكتب اللبناني، دخلت المجموعة هذا الميدان وتعاملت مع طيف واسع من الملفات: حسابات شركات تجارية وصناعية بأحجام مختلفة، وتقارير تدقيق لمصارف ومؤسسات مالية تخضع لرقابة مشددة، واستشارات متعلقة بالامتثال للمعايير المحاسبية الدولية التي أصبحت شرطاً لا غنى عنه في عالم الأعمال المعاصر، واستشارات ضريبية تتطلب فهماً دقيقاً للمنظومة القانونية اللبنانية بتعقيداتها. الرسالة الجوهرية كانت واضحة في كل عمل تقوم به: تقديم ما يحتاجه العميل اللبناني من شفافية في الأرقام ودقة في التقارير ورؤية صافية لأوضاعه المالية الحقيقية.

لكن ما ميّز عمل المجموعة عن كثير من المكاتب المحاسبية التقليدية هو البعد الفلسفي الكامن وراء العمل التقني. لم يكن الأمر مجرد ملء جداول وإعداد ميزانيات وتوقيع تقارير. وراء كل تقرير تدقيق وكل استشارة مالية وكل مراجعة ضريبية، كانت تكمن فلسفة تنظر إلى المحاسبة كأداة للنزاهة والحوكمة الرشيدة والشفافية، لا كعملية شكلية روتينية لإرضاء الجهات الرسمية وملء الأرشيف بالملفات. هذا البعد الأخلاقي في الممارسة المهنية شكّل جزءاً أصيلاً من هوية المجموعة ومن شخصية مؤسسها الذي ظلّ يردد في كل مناسبة أن مصداقية المهنة هي رأسمالها الأغلى، وأن المحاسب الذي يبيع مصداقيته يبيع كل شيء.

حراسة الإبداع: الملكية الفكرية في أرض المواهب

إذا كان التدقيق والمحاسبة يمثّلان العمود الفقري لحضور المجموعة في لبنان، فإن الملكية الفكرية تمثّل ربما البصمة الأكثر تميزاً وتفرداً. لبنان بلد معروف بخصوبته الإبداعية المذهلة التي لا تتناسب مع حجمه الصغير. من الشعر إلى الرواية، ومن الموسيقى إلى السينما، ومن التصميم إلى البرمجيات، ومن الإعلان إلى الطبخ – تتدفق الأفكار والابتكارات من هذه الأرض الصغيرة بغزارة تفوق التوقعات.

غير أن هذا الإبداع ظلّ لسنوات طويلة بلا حارس حقيقي. كانت القرصنة شائعة ومقبولة اجتماعياً إلى حدٍّ بعيد. نسخ الكتب والأقراص المدمجة والبرمجيات كان يتم علناً وبلا حرج. سرقة التصاميم والأفكار التجارية كانت تُعتبر في بعض الأوساط نوعاً من الذكاء التجاري لا جريمة تستوجب العقاب. وثقافة حماية الحقوق الفكرية كانت باهتة في وعي كثير من المبدعين أنفسهم، الذين لم يكونوا يدركون أن أعمالهم تمتلك قيمة قانونية واقتصادية قابلة للحماية والاستثمار.

هنا بالتحديد كان لمؤسسات أبوغزاله دور مميز ومختلف. الشركات المتخصصة التابعة للمجموعة تولّت مهام تسجيل العلامات التجارية وبراءات الاختراع وحقوق المؤلف، ومتابعة قضايا التعدّي على هذه الحقوق أمام الجهات القضائية المختصة. ومع دخولها إلى هذا الحقل في السوق اللبناني، وجدت نفسها أمام مهمة أكبر وأعمق من مجرد تقديم الخدمات القانونية والإجرائية. كانت المهمة الحقيقية ذات وجهين متلازمين: تقديم خدمات التسجيل والحماية من جهة، ونشر ثقافة الملكية الفكرية ذاتها بين المبدعين ورواد الأعمال والشركات والمؤسسات من جهة أخرى.

سعت المجموعة بجهد منهجي ومتواصل إلى تغيير العقلية السائدة. عملت على إقناع المبدعين ورواد الأعمال بأن الفكرة ليست مجرد خاطرة عابرة تُلقى في الهواء – إنها أصل اقتصادي حقيقي يستحق الحماية القانونية والاستثمار التجاري تماماً كأي أصل مادي ملموس. من خلال ندوات ومحاضرات واستشارات وحالات عملية نُشرت وعُرضت في سياقات مختلفة، تحوّلت الملكية الفكرية تدريجياً في أذهان شريحة متزايدة من اللبنانيين من مصطلح قانوني غامض بعيد عن الحياة اليومية إلى ركن أساسي من أركان التخطيط التجاري وحماية المشاريع.

تاج تيك:
حين يتحوّل الحلم الرقمي إلى منتج ملموس

لعل الخطوة الأكثر جرأة وطموحاً في مسيرة التحوّل التقني لمجموعة طلال أبوغزاله تمثّلت في تأسيس شركة "طلال أبوغزاله للتقنية" المعروفة باسمها التجاري "تاج تيك TAGTECH." هذه الشركة لم تكتفِ بتقديم الخدمات الرقمية والتدريب التقني كما تفعل أذرع المجموعة الأخرى، بل ذهبت إلى ما هو أبعد بكثير: دخلت عالم تصنيع الأجهزة الإلكترونية ذاتها.

في منطقة عربية اعتادت أن تكون مستهلكة للتكنولوجيا لا منتجة لها، وفي سوق تسيطر عليه العلامات التجارية الآسيوية والأميركية العملاقة سيطرة شبه مطلقة، بدت فكرة إنتاج أجهزة إلكترونية عربية التصميم والهوية خطوة محفوفة بالتحديات. لكن أبوغزاله رأى فيها ترجمة عملية لكل ما يؤمن به ويبشّر به منذ عقود: أن العرب قادرون على الانتقال من خانة الاستهلاك إلى خانة الإنتاج في مجال التكنولوجيا، وأن السيادة التقنية لا تتحقق بشراء الأجهزة فحسب بل بالمشاركة في صنعها.

أنتجت تاج تيك مجموعة متنوعة من الأجهزة الإلكترونية: هواتف محمولة ذكية بمواصفات تنافسية وأسعار في متناول شريحة واسعة من المستخدمين، وأجهزة لوحية (تابلت) صُمّمت لتلبّي احتياجات الطلاب والمهنيين في المنطقة العربية، وحواسيب محمولة (لابتوب) موجّهة للاستخدام التعليمي والمكتبي. لم تكن هذه الأجهزة مجرد نسخ مقلّدة من منتجات عالمية بغلاف عربي. كانت تحمل رؤية واضحة تتعلق بتوفير تكنولوجيا عالية الجودة بتكلفة معقولة تجعل التحوّل الرقمي في متناول الجميع – من الطالب الجامعي في بيروت إلى المزارع في البقاع إلى الموظف في الإدارة العامة.

والأكثر دلالة على عمق العلاقة بين أبوغزاله ولبنان في هذا المجال تحديداً هو إنشاء أول مصنع لتجميع الأجهزة الإلكترونية على الأراضي اللبنانية، وذلك بالشراكة مع الجامعة اللبنانية – الجامعة الوطنية الأكبر في البلد. هذه الشراكة لم تكن عشوائية ولا بروتوكولية. كانت تعبيراً عملياً صريحاً عن فلسفة يؤمن بها أبوغزاله في العمق: أن الجامعة يجب أن تكون شريكة في الإنتاج لا مجرد مصنع للشهادات، وأن الربط بين البحث الأكاديمي والتطبيق الصناعي هو الوسيلة الأنجع لتحويل المعرفة النظرية إلى قيمة اقتصادية حقيقية.

من خلال هذا المصنع، أُتيحت لطلاب الجامعة اللبنانية فرصة نادرة للاحتكاك المباشر بعالم التصنيع التقني: من خطوط التجميع إلى اختبارات الجودة إلى إدارة سلاسل التوريد. تحوّل المصنع من مجرد منشأة إنتاجية إلى مختبر تعليمي حيّ يعيش فيه الطلاب تجربة حقيقية تكسر الحاجز التقليدي بين ما يتعلّمونه في قاعات المحاضرات وما يحتاجه سوق العمل فعلياً. وبذلك تحقّق في هذا المشروع ما ظلّ أبوغزاله يدعو إليه في كل محاضراته الجامعية: ردم الهوّة بين النظرية والتطبيق.

حملت هذه المبادرة أبعاداً متعددة تتجاوز البعد التجاري الصرف. على الصعيد الاقتصادي، أثبتت أن لبنان قادر على الدخول في سلسلة القيمة التكنولوجية العالمية لا كمستهلك سلبي بل كمشارك فاعل في عملية الإنتاج. وعلى الصعيد التعليمي، وفّرت نموذجاً عملياً للشراكة بين القطاع الخاص والجامعة الحكومية يمكن تكراره في قطاعات أخرى. وعلى الصعيد الرمزي، بعثت رسالة مفادها أن الانهيار الاقتصادي الذي يعيشه لبنان لا يعني نهاية القدرة على الإنتاج والابتكار – بل ربما يكون حافزاً للبحث عن مسارات اقتصادية جديدة لم تُجرّب من قبل.

كان أبوغزاله يقول في كل مناسبة تتعلق بتاج تيك: "لا أريد للعربي أن يبقى مستهلكاً أبدياً للتكنولوجيا التي يصنعها الآخرون. أريده أن يشارك في صنعها. وإذا بدأنا بالتجميع اليوم، فسنصل إلى التصميم والتطوير الكامل غداً. المسيرة تبدأ بخطوة، والخطوة الأولى هي الأصعب والأهم." هذه الروح – روح من يرفض أن يقف متفرجاً على عالم يتشكّل ويصرّ على المشاركة في تشكيله – هي التي تميّز حضور أبوغزاله في لبنان عن حضور أي مستثمر أو رجل أعمال آخر. إنه لا يبحث عن ربح تجاري فحسب، بل يسعى إلى إثبات فكرة يعتبرها جوهرية: أن العقل العربي قادر على صنع ما يستهلكه، وأن التبعية التكنولوجية ليست قدراً محتوماً بل خيار يمكن تغييره بالإرادة والعمل والتخطيط.

بناء القدرات:
من قاعة التدريب إلى ميدان العمل

جانب آخر مهم من حضور مؤسسات أبوغزاله في لبنان تجلّى في ميدان التدريب وبناء القدرات البشرية. لم تكتفِ المجموعة بتقديم خدمات جاهزة لعملائها ثم الانصراف. رأت أن جزءاً أساسياً من مسؤوليتها يكمن في المساهمة في إعداد الكوادر اللبنانية المؤهلة لتقديم تلك الخدمات بنفسها وبمعايير عالية، مما يخلق أثراً مستداماً يتجاوز حدود العلاقة التعاقدية المؤقتة.

في بيروت، نظّمت مراكزها المتخصصة عدداً كبيراً من الدورات التدريبية وورش العمل على مدى سنوات. كانت هذه البرامج موجّهة إلى فئات متنوعة ومتباينة الاحتياجات: طلاب جامعيون يستعدون لدخول سوق العمل ويريدون تعزيز فرصهم بمهارات عملية إضافية، وموظفون جدد في بداية مسيرتهم المهنية يسعون إلى صقل أدائهم، ومديرون ماليون يحتاجون إلى مواكبة المستجدات في المعايير المحاسبية والتنظيمية، ومحامون يريدون فهم التقاطعات المتزايدة بين القانون والتكنولوجيا والملكية الفكرية، وموظفون في الإدارات العامة يسعون إلى تحديث مهاراتهم، ورواد أعمال شباب يبحثون عن أدوات حديثة لإطلاق مشاريعهم وإدارتها.

تنوّعت عناوين تلك الدورات وموضوعاتها تنوعاً يعكس اتساع مجالات عمل المجموعة: من المحاسبة وفق المعايير الدولية إلى إدارة المخاطر المالية، ومن التحضير للشهادات المهنية المتخصصة (مثل CPA وCMA وغيرها) إلى أساسيات حماية الملكية الفكرية، ومن استخدام التكنولوجيا في تطوير الأعمال إلى مبادئ الأمن السيبراني والتحوّل الرقمي.

لم يكن الهدف من هذه الأنشطة التدريبية ترويجاً تجارياً لخدمات المجموعة فحسب – رغم أن هذا البعد موجود بطبيعة الحال. الهدف الأعمق كان بناء شراكة معرفية حقيقية مع المجتمع المهني والتعليمي في لبنان. شراكة تقوم على تبادل الخبرات والمعارف وتكييف المادة العالمية لتناسب الاحتياجات المحلية دون التنازل عن جودة المعايير. هذا التبادل المستمر أنتج مع الوقت غربالاً ذكياً لتكييف المواد التدريبية بحيث تأخذ في الاعتبار الخصوصيات القانونية والإدارية والثقافية اللبنانية مع الحفاظ على الاتساق مع المعايير الدولية المعتمدة.

التقنية والتحوّل الرقمي: رهان المستقبل

لم تعد مجموعة طلال أبوغزاله منذ سنوات تكتفي بهويتها التقليدية كمجموعة محاسبية واستشارية وقانونية. فتحت أبوابها واسعة أمام عالم التكنولوجيا والتحوّل الرقمي، مدركة أن هذا العالم لم يعد فرعاً جانبياً يمكن تأجيله، بل أصبح العمود الفقري لأي نشاط مهني أو اقتصادي في القرن الحادي والعشرين. وفي هذا التوجه الجديد، كان للبنان نصيبه من المشروعات والمبادرات.

صحيحٌ أن لبنان يواجه تحديات ضخمة على صعيد البنية التحتية التقنية – من بطء الإنترنت المزمن إلى انقطاع الكهرباء المتكرر الذي يحوّل كل يوم عمل إلى مغامرة – لكن ما يملكه من رأسمال بشري في مجال تكنولوجيا المعلومات يجعله بيئة لا يمكن تجاوزها أو تجاهلها. مبرمجون لبنانيون ومهندسو كمبيوتر ومصمّمو مواقع ومطوّرو تطبيقات يعملون بنجاح في شركات عالمية كبرى أو يؤسسون شركاتهم الناشئة الخاصة. هذا الرصيد البشري دفع مؤسسات أبوغزاله إلى التعامل مع الواقع اللبناني بعقلية الاستفادة من المتاح بدلاً من الانتظار حتى تتوفر الظروف المثالية – التي قد لا تتوفر أبداً.

شاركت المجموعة في مبادرات متعددة في لبنان تتعلق بالتدريب على المهارات الرقمية الأساسية والمتقدمة، وباعتماد الأنظمة الإلكترونية في بعض العمليات الإدارية والمحاسبية، وبنشر الوعي العام بأهمية التحوّل الرقمي في المؤسسات مهما كان حجمها – من الشركة العائلية الصغيرة إلى المؤسسة المصرفية الكبيرة. كانت الرسالة واحدة في كل سياق: التحوّل الرقمي ليس رفاهية يمكن تأجيلها إلى حين تتحسّن الأوضاع. إنه ضرورة حياتية الآن، وكل يوم تأخير يزيد الفجوة اتساعاً بين لبنان والعالم.

من الواضح في خطاب أبوغزاله نفسه أنه لا يرى في العالم الرقمي مجرد أداة تُضاف إلى أدوات العمل القديمة. يراه فضاءً جديداً بالكامل يُعاد فيه تشكيل الاقتصاد والتعليم والإدارة والعلاقات الاجتماعية من الأساس. ومن هنا، كان حضوره المؤسسي في لبنان يسعى دائماً إلى مساعدة المؤسسات والشركات اللبنانية على الانتقال – ولو بخطوات صغيرة ومتدرجة – من عالم الورق والطوابع والأرشيف التقليدي إلى عالم الشاشات وقواعد البيانات والحوسبة السحابية.

أثر يتخطى الأرقام

لا يمكن قياس أثر مؤسسات طلال أبوغزاله في لبنان بعدد العملاء الذين تعاملت معهم أو بحجم العقود التي نفّذتها فحسب، رغم أهمية تلك المؤشرات الكمّية. الأثر الحقيقي – الأثر الذي يبقى بعد إغلاق الملفات وانفضاض المؤتمرات وانتهاء صلاحية العقود – يمتد إلى طبقات أعمق من السطح المرئي.

على المستوى الأول، أسهمت المجموعة في نشر معايير مهنية عالية في مجالات المحاسبة والتدقيق والاستشارات في سوق كان كثير من أطرافها يتعامل مع هذه المجالات بمنطق الحد الأدنى والتسويات غير الرسمية. أدخلت ثقافة مهنية جديدة تقوم على الدقة والشفافية والمصداقية والالتزام بالمعايير الدولية دون تنازلات.

على المستوى الثاني، ربطت لبنان بشبكة علاقات إقليمية ودولية واسعة أتاحت للشركات اللبنانية الوصول إلى أسواق وفرص كانت بعيدة المنال. أصبح بإمكان شركة لبنانية صغيرة أو متوسطة أن تستفيد من خبرات المجموعة في بلدان أخرى وأن تصل إلى عملاء وشركاء محتملين في أسواق لم تكن تعرف طريقها إليها.

على المستوى الثالث – وهو ربما الأكثر ديمومة والأقل ظهوراً في العناوين الصحفية – وفّرت المجموعة فرص عمل وتدريب لعشرات الشباب اللبناني الذين وجدوا في مكاتبها منصة لصقل مهاراتهم المهنية والانخراط في بيئة عمل منظمة ومنضبطة والتعرّف إلى ثقافة مهنية عابرة للحدود. هؤلاء الشباب حملوا معهم تلك الثقافة أينما ذهبوا بعد ذلك – سواء بقوا في المجموعة أو انتقلوا إلى مؤسسات أخرى – فأصبحوا بدورهم ناقلين لمعايير الاحتراف والجودة في النسيج الاقتصادي اللبناني الأوسع.

عودة لا تعرف التقاعد

يمكن النظر إلى مؤسسات طلال أبوغزاله في لبنان كفصل متجدد من حركة ذهاب وعودة مستمرة بين الرجل وهذا البلد. بدأ الأمر بقصة لجوء ودراسة وتكوّن في الخمسينيات والستينيات. ثم تطوّر إلى حضور مؤسسي يقدم خدماته المهنية المتخصصة لسوق تحتاجها. ثم توسّع ليشمل شراكات تعليمية وتدريبية مع الجامعات والمؤسسات، ومبادرات تقنية ومعرفية تواكب التحوّلات العالمية.

هذه العلاقة المؤسسية لا تزال تتجدد وتتطور مع كل مرحلة ومع كل تحوّل يشهده العصر. وكأنها علاقة عضوية حيّة ترفض الجمود والتقاعد – تماماً كصاحبها الذي يصرّ على أن يبقى فاعلاً ومنتجاً ومتفاعلاً مع هذا البلد الذي لا يتوقف عن مفاجأته بأزماته وإمكاناته في آنٍ واحد.

الفصل 5: في رحاب الجامعات اللبنانية

دورة الزمن الكاملة

لم تنقطع صلة طلال أبوغزاله بالجامعة يوماً منذ غادر مقاعد الدراسة في بيروت شاباً يحمل شهادته وأحلامه وقلقه على المستقبل. لكن طبيعة تلك الصلة تبدّلت تبدّلاً جذرياً مع مرور العقود. بدا الأمر وكأن الزمن أتمّ دورته الكاملة ليعيد الرجل إلى القاعات ذاتها التي عرفها طالباً، لكن من موقع مختلف كلياً هذه المرة. لم يعد ذلك الشاب الذي يحمل كتبه تحت إبطه ويجلس في الصفوف الخلفية يدوّن الملاحظات ويحاول فهم ما يقوله الأستاذ. أصبح الآن هو من يقف أمام المنصة، والقاعة بأسرها تصغي إليه.

لكن هذا التحوّل في الأدوار لم يُفقده الإحساس بذلك الطالب الأول الذي كانه يوماً. في كل مرة يعود فيها إلى جامعة لبنانية – أياً كانت – يظلّ في عينيه شيء من ذلك الشاب القادم من الجنوب. شيء من الدهشة الهادئة أمام المكان. وشيء من الامتنان العميق لبلد أتاح له فرصة الجلوس في تلك القاعات أصلاً. هذا الإحساس المزدوج – إحساس الرجل الناجح الذي يعرف من أين جاء ولا ينسى – يمنح لقاءاته الجامعية في لبنان حرارة خاصة ونكهة مختلفة عن أي لقاء أكاديمي آخر في أي مكان في العالم.

أكثر من محاضرة

كثيراً ما وُصفت لقاءات أبوغزاله في الجامعات اللبنانية بأنها تجمع بين السرد الشخصي والتحليل الفكري في مزيج نادر. فالطلاب لا يحضرون ليستمعوا إلى عرض أكاديمي تقليدي مليء بالرسوم البيانية والمصطلحات المعقدة. ولا يأتون لمجرد سماع

نصائح نظرية عامة من رجل أعمال ناجح. يأتون ليلمسوا شيئاً أكثر حميمية وأعمق أثراً: خيوط الحكاية الحقيقية التي تربط بين طفولة اللجوء في قرى الجنوب وشباب الدراسة الجامعية في بيروت ومسيرة عالمية لا تزال تتّسع وتتشعب.

حين يقف أبوغزاله أمام طلاب لبنانيين، يعرف أنه أمام جمهور خاص. هؤلاء ليسوا طلاباً في بلد مستقر مزدهر يتطلعون إلى مستقبل مضمون. هؤلاء شباب يعيشون في قلب أزمة خانقة: انهيار اقتصادي غير مسبوق، وانقطاع كهرباء، وتراجع في قيمة العملة والمدخرات، وقلق يومي على لقمة العيش وعلى إمكانية إكمال الدراسة أصلاً. يعرف أن كثيرين منهم يفكرون جدياً في الهجرة. ويعرف أن بعضهم فقد الأمل تماماً في هذا البلد. لذلك يختار كلماته بعناية – لا ليجمّل الواقع ولا ليزيد من إحباطهم، بل ليقدّم لهم شيئاً أندر من الوعود: تجربة حقيقية عاشها إنسان حقيقي بدأ من ظروف لم تكن أفضل من ظروفهم.

الجامعة الأميركية: العودة إلى البيت الأول

في الجامعة الأميركية في بيروت، التي يعتبرها بيته الأكاديمي الأول والمكان الذي تشكّل فيه وعيه المهني، كان للعودة طعم لا يشبه أي مكان آخر. وقف محاضراً في القاعات التي جلس فيها يوماً متلقياً. مشى في الممرات ذاتها التي مشى فيها شاباً يحمل كتبه ويعدّ قروشه. نظر من النوافذ ذاتها التي نظر منها وهو يحلم بمستقبل لم يكن يعرف ملامحه بعد.

تحدّث لطلبة اليوم عن أهمية التعلّم الذي لا يتوقف عند حدود الشهادة. شدّد على أن الشهادة الجامعية – مهما كانت مرموقة – ليست سوى تذكرة دخول إلى ملعب الحياة المهنية. اللعبة الحقيقية تبدأ بعدها. التحدي الأصعب ليس في الحصول على الشهادة، بل في القدرة على التكيّف المستمر مع عالم لا يكفّ عن التغيّر. عالمٍ تتقادم فيه المعرفة بسرعة مذهلة ولا يبقى فيه إلا من يواصل التعلّم ويُعيد اختراع نفسه مع كل منعطف.

قال لهم ما يؤمن به من عمق تجربته: "الشهادة التي حصلتُ عليها من هذه الجامعة قبل عقود كانت مهمة، نعم. لكن لو اكتفيتُ بها وتوقفتُ عن التعلّم، لكنتُ اليوم في مكانٍ مختلف تماماً. ما أوصلني إلى هنا ليس الشهادة وحدها، بل الاستمرار في التعلّم كل يوم – من الكتب، ومن التجارب، ومن الأخطاء، ومن الناس."

الجامعة اللبنانية: حديث من القلب

في الجامعة اللبنانية – الجامعة الوطنية الحكومية التي تحتضن الشريحة الأعرض من شباب لبنان، وخصوصاً أبناء الطبقات المتوسطة والشعبية – اتّخذ خطابه طابعاً مختلفاً. هنا كان أكثر مباشرة وأكثر قرباً من الواقع المعاش. يعرف أن كثيراً من هؤلاء الطلاب يعانون مما عاناه هو في شبابه: ضيق المال، وغياب الواسطة، والقلق اليومي الذي لا ينتهي.

خاطبهم بلغة من يعرف الطريق لأنه مشى فيه قبلهم لا لأنه قرأ عنه في كتاب: "أنا ابن هذا الواقع. لم أولد بملعقة ذهبية في فمي. بدأت من تحت الصفر – بل ربما من تحت تحت الصفر. كنتُ لاجئاً لا يملك شيئاً سوى رأسه ويديه. لا تظنوا أن الظروف القاسية التي تعيشونها هي نهاية الطريق. قد تكون هي بالضبط الوقود الذي يصنع منكم أشخاصاً استثنائيين. لا تنتظروا الحلول الجاهزة من أحد – لا من الحكومة ولا من الأحزاب ولا من الخارج. كونوا أنتم صنّاع مستقبلكم بأيديكم وعقولكم."

كانت هذه الكلمات تقع في نفوس الطلاب موقعاً خاصاً ومؤثراً. ليس لأنها كلمات جميلة أو بليغة – فالكلمات الجميلة يسمعونها كل يوم من السياسيين والمنظّرين دون أن تغيّر شيئاً في واقعهم. بل لأنها صادرة عن رجل خبر المعاناة فعلاً وانتصر عليها بالعمل لا بالكلام. رجل يقف أمامهم كدليل حيّ على أن ما يقوله ممكن التحقيق. الفارق بين النصيحة النظرية والشهادة الحية هو الفارق بين من يصف لك الطريق وهو جالس في مكتبه، ومن يصفه لك وآثار الطين لا تزال على حذائه.

حوارات المستقبل في جامعات أخرى

تنوّعت المواضيع التي طرحها أبوغزاله في جامعات لبنانية مختلفة، متكيّفاً مع طبيعة كل جامعة وجمهورها واهتماماتها.

في جامعة القديس يوسف – العريقة بتراثها الفرنكوفوني وتاريخها الطويل في إعداد النخب اللبنانية – ركّز على اقتصاد المعرفة والثورة الصناعية الرابعة وتأثيراتها المتوقعة على سوق العمل في المنطقة. شرح للطلاب بأمثلة عملية كيف أن كثيراً من الوظائف التي يتدربون عليها اليوم قد لا تكون موجودة بعد عشر سنوات، وأن المهارات المطلوبة في المستقبل ستكون مختلفة جذرياً عمّا هو مطلوب اليوم.

وفي الجامعة اللبنانية الأميركية (LAU) ركّز على ضرورة التحوّل الرقمي وريادة الأعمال التكنولوجية. شرح للطلاب كيف أن الثروة الحقيقية في عالم اليوم لم تعد فيما يُستخرج من باطن الأرض بل فيما يُنتجه العقل البشري من ابتكار وبيانات وملكية فكرية. حين سُئل عن دور الدولة في دعم الابتكار، كان صريحاً بعادته: "الدولة مطالبة بتوفير البيئة الحاضنة – التشريعات والبنية التحتية والحوافز. لكن لا تنتظروها حتى تفعل ذلك. العالم مفتوح أمامكم عبر الإنترنت. يمكنكم بناء شركاتكم الناشئة وأنتم في لبنان لتنافسوا في الأسواق العالمية. لا تحتاجون إلى إذن من أحد لتبدأوا."

في جامعة بيروت العربية والجامعة الأنطونية، غاص في الجانب الأخلاقي لعالم الأعمال – وهو موضوع يعتبره حجر الزاوية في أي نجاح مستدام. تحدّث عن الفساد وأثره المدمّر على المؤسسات والمجتمعات. وأكّد بوضوح أن النجاح الذي يدوم لا يُبنى على الحيل والمناورات والتحايل على القوانين. يُبنى على النزاهة والسمعة الطيبة والالتزام بالمعايير المهنية والأخلاقية. وقال بصراحة لا تُخطئها الأذن: "الفساد قد يحقق مكاسب سريعة. لكنه يقتل المؤسسات والأوطان حين يُحسب الأثر على المدى البعيد. وما نراه في لبنان اليوم من انهيار هو جزئياً ثمن عقود من الفساد الذي تراكم حتى انفجر."

وفي جامعة الروح القدس – الكسليك وغيرها، انتقد أساليب التلقين والحفظ السائدة في كثير من المؤسسات التعليمية العربية. دعا إلى مناهج حديثة تركّز على التفكير النقدي وحل المشكلات والمهارات الرقمية والعمل الجماعي، بدلاً من المناهج التي تقيس قدرة الطالب على الحفظ والاسترجاع لا على الفهم والتحليل والابتكار.

المبادرات العملية

لم يكتفِ أبوغزاله بإلقاء المحاضرات والمواعظ ثم المغادرة. ترجم قناعاته إلى مبادرات عملية ملموسة يمكن للطلاب أن يلمسوا أثرها مباشرة في حياتهم:

فتحت مؤسسات المجموعة أبوابها أمام طلاب الجامعات اللبنانية للتدريب العملي الصيفي، ليعيشوا تجربة العمل الحقيقي في بيئة مهنية منضبطة ويتعرّفوا من الداخل على طبيعة العمل في التدقيق والاستشارات والملكية الفكرية.

رعى مسابقات لريادة الأعمال تحفّز الطلاب على تطوير أفكار مشاريع مبتكرة وتقديمها أمام لجان تحكيم متخصصة، مع جوائز ودعم فني لمساعدة أصحاب الأفكار الواعدة في تحويلها إلى شركات قابلة للحياة.

طرح فكرة إنشاء كراسي أكاديمية متخصصة في الملكية الفكرية واقتصاد المعرفة في الجامعات اللبنانية، لتشجيع البحث العلمي الجاد الموجّه نحو حل المشكلات الحقيقية التي يواجهها المجتمع.

أسئلة الجيل القلق

كانت جلسات الحوار المفتوح مع الطلاب – تلك اللحظات التي يسقط فيها البروتوكول وتنطلق الأسئلة الحقيقية من قلوب قلقة – هي الأكثر حيوية وصدقاً في زياراته الجامعية. أسئلة الطلاب كانت تعكس قلق جيل بأكمله يعيش تحت ضغوط لم يعرفها آباؤهم وأجدادهم بهذا الحجم: "هل نهاجر أم نبقى؟" "هل هناك مستقبل في هذا البلد أم أننا نضيع وقتنا؟" "كيف نبدأ مشروعاً ونحن لا نملك رأسمال؟" "هل الشهادة الجامعية لا تزال تساوي شيئاً في سوق العمل؟"

لم يتهرّب من هذه الأسئلة الصعبة ولم يلجأ إلى إجابات دبلوماسية فارغة. عن الهجرة قال بصدق من يعرف ثمن الاغتراب: "القرار شخصي في نهاية المطاف ولا يحقّ لأحد أن يقرر نيابة عنكم. اذهبوا إن أردتم لتتعلّموا وتكتسبوا الخبرة وتوسّعوا آفاقكم. لكن أرجوكم لا تقطعوا الحبل السرّي مع وطنكم. لبنان سيحتاجكم يوماً ما، وأنتم أيضاً ستحتاجون جذوركم مهما ابتعدتم. الشجرة بلا جذور تسقط عند أول عاصفة."

وعن الفشل قال بابتسامة من يعرف الطريق جيداً: "الفشل هو المعلّم الأقسى والأصدق. كل معلّم آخر يمكن أن يجاملك أو يخدعك. الفشل وحده لا يكذب. أنا شخصياً فشلت مرات عديدة في حياتي. ولولا تلك العثرات المؤلمة لما تعلّمت كيف أنهض بعد كل سقطة وأكمل الطريق بقدمين أقوى."

أسئلة الجيل القلق

في المحصلة، لم يكن حضور أبوغزاله في الجامعات اللبنانية مجرد بند في جدول أعمال زيارة رسمية. لم يكن نشاطاً بروتوكولياً عابراً يُنجز ويُنسى. كان أقرب إلى ورشة أمل متنقلة تترك أثرها في كل محطة. كان يغادر القاعات تاركاً وراءه طلاباً يفكرون بطريقة مختلفة عمّا كانوا يفكرون به قبل ساعتين. وأساتذة متحمسين لتطوير مناهجهم وأساليبهم التدريسية. وإدارات جامعية أكثر انفتاحاً على إقامة شراكات مع القطاع الخاص وعالم التكنولوجيا.

رسالته كانت واحدة في كل جامعة وعند كل منصة: "أنتم يا شباب لبنان ثروته التي لا تنضب ولا تُستنزف. ليس النفط ولا الغاز ولا المساعدات الخارجية ما سينقذ هذا البلد. ما سينقذه هو عقولكم وسواعدكم وإرادتكم التي ترفض أن تنكسر. وأنا شاهد حيّ على أن الإرادة تصنع المعجزات حين تقترن بالعلم والعمل."

الفصل 6: المؤتمرات الصحفية والإعلام

الإعلام كساحة معركة

إذا كانت قاعات الجامعات مسرحاً للحوار المعمّق مع الأجيال الصاعدة، فإن المنابر الإعلامية اللبنانية شكّلت فضاءً أوسع أثراً وأبعد مدى. هنا لم يكن الجمهور مئات الطلاب في قاعة مغلقة، بل ملايين المشاهدين والقراء والمستمعين بكل شرائحهم ومستوياتهم وانتماءاتهم. وهنا تداخل صوت الخبير الاقتصادي مع صوت المواطن العربي المشغول بقضايا أمته، ليتوجّه إلى الرأي العام اللبناني بخطاب يرفض المواربة ويأبى التجميل.

بيروت المنبر الحر

أدرك أبوغزاله منذ وقت مبكر من مسيرته المكانة الاستثنائية التي تحتلها بيروت في خريطة الإعلام العربي. في منطقة عربية يسود فيها القيد والرقابة والخطوط الحمراء الكثيرة، كانت بيروت توفّر هامش حرية نادراً يتيح للصحفي والمفكر والخبير أن يقول

ما يريد دون أن يجد نفسه خلف القضبان أو في قائمة الممنوعين من السفر. هذا الهامش اللبناني الفريد وفّر لأبوغزاله بيئة مثالية لطرح أفكار قد تبدو صادمة أو مزعجة أو غير تقليدية في سياقات أخرى.

والأهم من ذلك أنه لم يتعامل مع الإعلام كأداة للعلاقات العامة والترويج لأعمال مجموعته. هذا التصور الضيق لدور الإعلام كان غريباً عنه. رأى في المنابر الإعلامية منصة للتثقيف الاقتصادي ولتشكيل الوعي العام حول قضايا يعتبرها مصيرية: مستقبل الاقتصاد اللبناني، والتحوّل الرقمي، وحماية الملكية الفكرية، وإصلاح التعليم، ومكافحة الفساد. مارس هذه المسؤولية بجدّية واستمرارية على مدى سنوات طويلة، حتى أصبح اسمه مرتبطاً في أذهان اللبنانيين بالتحليل الاقتصادي الصريح الذي لا يخشى إغضاب أحد.

المؤتمرات الصحفية: تشريح بلا تخدير

اعتاد اللبنانيون على مؤتمرات أبوغزاله الصحفية التي كانت تُعقد غالباً في توقيتات اقتصادية حرجة – كأنه يختار عمداً اللحظات الأكثر سخونة ليقول فيها ما يجب أن يُقال. لم تكن تلك المؤتمرات بيانات رسمية مغلّفة بورق السيلوفان الدبلوماسي. كانت جلسات تشريح للواقع بلا تخدير – الجسد مكشوف على الطاولة والأدوات حادة والتشخيص لا يعرف المجاملة.

في واحد من أبرز مؤتمراته، عُقد في ذروة الأزمة المالية التي ضربت لبنان، وقف أمام الصحفيين ووجّه رسالة مباشرة لا لبس فيها: النموذج الاقتصادي الذي اعتمده لبنان لعقود – ذلك النموذج القائم على الريع المصرفي والخدمات المالية والفوائد المرتفعة – وصل إلى نهايته الطبيعية. لم يعد قابلاً للإصلاح أو الترقيع. والتحوّل نحو اقتصاد منتج قائم على المعرفة والابتكار لم يعد ترفاً أكاديمياً بل ضرورة وجودية. واجه الصحفيين بالأرقام والوقائع والمؤشرات، محذّراً من أن تأخر الإصلاحات الجذرية في الحوكمة والشفافية سيؤدي إلى كارثة – وهو ما حصل فعلاً بعد فترة، مما أكسبه مصداقية إضافية في أعين كثيرين كانوا يعتبرون تحذيراته مبالغاً فيها.

تحدّث بجرأة ملفتة عن القطاع المصرفي تحديداً، في وقت كان الحديث عن المصارف اللبنانية بغير لغة المديح يُعتبر في بعض الأوساط من المحرّمات. دعا إلى إعادة هيكلة حقيقية للقطاع تضمن حقوق المودعين وتعيد الثقة المفقودة. وأطلق واحدة من أكثر

عباراته انتشاراً وتداولاً: "الثقة هي العملة الأهم في أي اقتصاد. وهي العملة الوحيدة التي لا يستطيع أي مصرف مركزي في العالم أن يطبعها. تُبنى بالشفافية والنزاهة والمؤسسات، أو لا تُبنى أبداً."

الشاشة الصغيرة: فن تبسيط المعقّد

كان أبوغزاله ضيفاً دائماً على الشاشات اللبنانية – من قنوات إخبارية إلى برامج حوارية إلى نشرات اقتصادية متخصصة. سرّ حضوره التلفزيوني الجاذب لم يكن في المعلومات التي يقدمها فحسب – فالمعلومات متاحة في الكتب والتقارير لمن يريد. السر كان في قدرة فريدة على تبسيط المفاهيم المعقدة دون الإخلال بدقتها. يستطيع أن يشرح مفهوم سلسلة الكتل (Blockchain) أو آليات التضخم التراكمي أو تطبيقات الذكاء الاصطناعي بلغة يفهمها ربّ بيت عادي في قرية جنوبية أو سائق تاكسي في بيروت، دون أن يشعر المشاهد المتخصص بأن المعلومة قد تبسّطت إلى حدّ الإخلال.

في حواراته التلفزيونية، كان يمارس مهارة أخرى لا تقل أهمية: الربط الدائم بين المحلي والعالمي. يشرح للمشاهد اللبناني الجالس في صالون بيته كيف أن قراراً يُتخذ في واشنطن أو بكين أو فرانكفورت قد ينعكس مباشرة على سعر رغيف الخبز في بيروت أو على قيمة الليرة في جيبه. هذا الربط كان يكسر العزلة التي يشعر بها المواطن العادي ويجعله يفهم أن مشاكله المحلية ليست معزولة عن حركة العالم، وأن فهم ما يجري في العالم ضروري لفهم ما يجري في حيّه ومدينته وبلده.

واستخدامه المتقن للأمثلة الحياتية والقصص من تجربته الشخصية ومن التاريخ جعل مقاطعه التلفزيونية تنتشر بكثافة على وسائل التواصل الاجتماعي بعد بثّها، فتصل إلى جمهور أوسع بكثير من جمهور البرنامج التلفزيوني الأصلي.

قضايا حملها إلى الضوء

استثمر أبوغزاله المنابر الإعلامية اللبنانية بذكاء لإثارة قضايا يعتبرها مصيرية ويرى أنها لا تنال حقها من الاهتمام العام:

على صعيد التحوّل الرقمي للدولة، دعا بإلحاح عبر كل منبر أتيح له إلى اعتماد الحكومة الإلكترونية كوسيلة فعّالة – وربما الوحيدة – للقضاء على الفساد والبيروقراطية والرشوة في الإدارات العامة اللبنانية. أوضح مراراً أن رقمنة الخدمات الحكومية ليست مجرد تحسين شكلي بل تغيير جذري في العلاقة بين المواطن والدولة

وفي مجال الملكية الفكرية، استثمر الإعلام لنشر ثقافة احترام حقوق المبدعين. أوضح للفنانين والكتّاب والمبرمجين والمصممين اللبنانيين أن حماية نتاجهم الفكري ليست مسألة قانونية جافة بعيدة عن حياتهم اليومية – إنها الطريق الوحيد لتحويل إبداعهم إلى مصدر دخل حقيقي ومستدام.

وقبل جائحة كورونا وأثناءها، ارتفع صوته في الإعلام مطالباً بالاعتراف بالتعليم الرقمي وتطوير أدواته ومنصاته، معتبراً أن الإنترنت ينبغي أن يُعامل كحق إنساني أساسي لا يقل أهمية عن الماء والكهرباء والهواء النظيف.

جرأة تجلب النقد أيضاً

لم يسلم أبوغزاله من الهجوم والانتقاد، وهو أمر طبيعي لمن يسبح عكس التيار. بعض آرائه كانت تتعارض مع المسلّمات السائدة في الأوساط الاقتصادية والسياسية اللبنانية. وبعض تحذيراته الاقتصادية اعتبرها منتقدوه تشاؤماً مفرطاً أو مبالغة في التهويل – قبل أن تأتي الأيام لتثبت صحة كثير من تلك التحذيرات بطريقة مؤلمة.

تعامل مع النقد بهدوء ورحابة صدر، مكرراً في أكثر من مقابلة أن دوره كخبير مستقل هو قرع جرس الإنذار والتحذير من الأخطار قبل وقوعها، لا مجاملة الناس بما يريدون سماعه أو دغدغة مشاعرهم بأوهام وردية. كان يقول للإعلاميين بوضوح لا لبس فيه: "أنا لا أبحث عن منصب سياسي ولا أنافس أحداً على زعامة أو شعبية. رأسمالي الوحيد هو مصداقيتي. وواجبي أن أقول الحقيقة كما تكشفها لي الأرقام والمؤشرات والتجارب، حتى لو كانت حقيقة مؤلمة لا يريد أحد أن يسمعها."

الرقمي: الوصول إلى من لا تصله الشاشة

لم يقف عند حدود الإعلام التقليدي بمحطاته وصحفه ومجلاته. أدرك مبكراً – ربما قبل كثيرين من أبناء جيله – أن جيل الشباب لم يعد يتابع نشرات الأخبار المسائية الطويلة ولا يشتري الصحف الورقية من الأكشاك. هذا الجيل يعيش على هاتفه المحمول، يستقي معلوماته من وسائل التواصل الاجتماعي، ويتفاعل مع المحتوى القصير المركّز السريع.

لذلك كان حاضراً بقوة على منصات التواصل وفي الندوات الافتراضية. خاطب الشباب عبر مقاطع قصيرة مركّزة على تويتر وفيسبوك ويوتيوب. أجاب على أسئلتهم مباشرة في بث حيّ. شاركهم مقالاته ورؤاه ومقترحاته. هذا الحضور الرقمي خلق تفاعلاً حياً وجدلاً صحياً حول الأفكار التي يطرحها، وأتاح له الوصول إلى شريحة من الشباب اللبناني لم يكن ليصل إليها عبر القنوات التقليدية وحدها.

الإعلام كشريك في البناء

نجح أبوغزاله عبر السنوات في تحويل ظهوره الإعلامي في لبنان من مجرد إطلالات متفرقة يتم نسيانها بعد يومين إلى حالة مؤثرة ومستمرة في النقاش العام اللبناني. أصبح صوتاً يُستشهد به ويُرجع إليه في القضايا الاقتصادية والتنموية والتعليمية. رسّخ من خلال حضوره الإعلامي المتواصل مفاهيم جديدة في الوعي العام اللبناني، وساهم في رفع مستوى الثقافة الاقتصادية لدى شرائح واسعة من الناس لم تكن معتادة على التعاطي مع هذه المواضيع.

رسالته للإعلاميين اللبنانيين كانت دائماً واحدة، يكررها في كل مناسبة لأنه يعتبرها جوهرية: "أنتم حرّاس الحقيقة. ودوركم لا يقل خطورة وأهمية عن دور القاضي في المحكمة أو المعلّم في الصف. حافظوا على حريتكم واستقلاليتكم مهما كلّف الثمن، فهي آخر حصون لبنان وأغلاها."

الفصل 7: دعم المعرفة والتكنولوجيا

الإيمان الذي يسبق المشروع

كل ما تقدّم في الفصول السابقة – الجامعات والإعلام والمؤسسات المهنية والمؤتمرات – يصبّ في نهر واحد يتكرر كنبض قلب في فكر طلال أبوغزاله: الإيمان العميق بأن المعرفة والتكنولوجيا لم تعودا أدوات مساعدة يمكن الاستغناء عنها أو تأجيل التعامل معها إلى أوقات أفضل. أصبحتا العصب الذي يمدّ أي مشروع تنموي حقيقي بالحياة. هذا الإيمان ليس ترفاً فكرياً ولا شعاراً يُردّد في المناسبات الرسمية ثم يُنسى. إنه خلاصة مقطّرة من تجربة رجل صعد من مقعد اللاجئ المتواضع في قرية جنوبية إلى قمة العالمية بسلاحين اثنين لا ثالث لهما: العلم المتواصل، ومواكبة التحوّلات التقنية دون تأخر.

حين ينظر أبوغزاله إلى لبنان من هذه الزاوية تحديداً – زاوية المعرفة والتكنولوجيا – يرى بلداً يقف على خط فاصل حادّ. على أحد جانبي هذا الخط يكمن خطر التخلّف عن ركب العصر وضياع ما تبقّى من فرص في عالم لا يرحم المتأخرين. وعلى الجانب الآخر تلوح إمكانية القفز إلى الأمام استناداً إلى ما يمتلكه لبنان من عقول وطاقات كامنة لم تُستثمر بعد على النحو الصحيح.

الثروة التي لا تنضب

في أحاديثه المتكررة عن ملامح المستقبل – سواء في المؤتمرات الدولية أو في اللقاءات الإعلامية أو في المحاضرات الجامعية – يعود أبوغزاله دائماً إلى فكرة محورية يعتبرها مفتاح فهم العصر الجديد: العالم دخل حقبة لم يعد فيها النفط أو الأرض أو المعادن أو حتى الموقع الجغرافي عوامل التفوّق الحاسمة كما كانت في القرون الماضية. الثروة الجديدة – الثروة التي ستحدد من يتقدّم ومن يتأخر في العقود القادمة – هي ما يسمّيه "المعرفة المؤتمتة": ذلك المزيج الفريد من المعلومات والتكنولوجيا والقدرة على تحويل الأفكار إلى منتجات وخدمات ذات قيمة اقتصادية.

والتكنولوجيا في هذا السياق ليست مجرد حواسيب وأجهزة لوحية وهواتف ذكية – رغم أهمية كل ذلك. إنها منظومة شاملة متكاملة تضم البنية التحتية الرقمية من

شبكات وسيرفرات وكابلات، والمناهج التعليمية الحديثة التي تعدّ الإنسان للتعامل مع هذا العالم الجديد، والإدارة الذكية التي تستخدم البيانات في اتخاذ القرارات بدلاً من الحدس والتخمين والمحسوبيات.

من هذا المنطلق، لم يكن حضور مجموعته في لبنان تقليدياً محصوراً في تقديم خدمات محاسبية واستشارية. كان هناك دائماً خيط يشدّ أنشطة المجموعة نحو كل ما يتصل بالتقنية والتحوّل الرقمي. الرسالة الكامنة في كل ورشة عمل وكل برنامج تدريبي وكل ندوة توعوية كانت واحدة: لبنان لا يملك ترف تجاهل الثورة الرقمية التي تعصف بالعالم. إما أن يلحق بالقطار أو يبقى على الرصيف يشاهد الآخرين يمضون.

تسليح الجيل الجديد

أدركت المجموعة في وقت مبكر أن التعليم الجامعي التقليدي – على أهميته وضرورته – لا يكفي وحده لسدّ الفجوة المتزايدة بين ما يحتاجه سوق العمل الحقيقي وما يحصل عليه الخريج الجديد من معارف ومهارات. الجامعة تمنح الأساس النظري والإطار الفكري العام، لكن المهارات العملية والتطبيقية والتقنية التي يحتاجها سوق العمل تتطور بسرعة تفوق قدرة المناهج الأكاديمية على المواكبة. لذلك أنشأت في لبنان مراكز تدريب مهني متخصصة صُمّمت بعناية لردم تلك الهوّة.

لم تكن البرامج التدريبية التي تقدمها تلك المراكز عشوائية أو ارتجالية. كانت مبنية على رصد دقيق ومستمر لاحتياجات السوق المحلية والإقليمية: ما هي المهارات المطلوبة اليوم؟ وما هي المهارات التي ستكون مطلوبة غداً؟ وأين تكمن الفجوات الأكبر بين العرض والطلب في سوق العمل؟

من بين البرامج التي أحدثت أثراً ملموساً في حياة المتدربين، برامج التحضير للشهادات المهنية الدولية المعترف بها عالمياً مثل CPA وCMA وغيرها. في سوق عمل لبناني وإقليمي يزداد تنافسية كل يوم، أصبح الحصول على هذه الشهادات أشبه بجواز سفر مهني يفتح للشاب اللبناني أبواب كبرى الشركات المحلية والعالمية، ويسهّل طريقه في بلدان الاغتراب التي يتوجه إليها كثير من الشباب بحثاً عن فرص أفضل.

ومع تصاعد الموجة الرقمية وتسارع التحوّلات التكنولوجية، تطوّرت برامج المراكز لتشمل مجالات جديدة أصبحت ضرورية في سوق العمل المعاصر: لغات البرمجة المختلفة، وأساسيات الذكاء الاصطناعي وتطبيقاته العملية، ومبادئ الأمن السيبراني

وحماية البيانات، وأدوات التسويق الرقمي، وإدارة المشاريع التقنية. الهدف كان واضحاً ومحدداً: أن يدخل الشاب اللبناني سوق العمل مزوّداً بأدوات العصر الرقمي اللازمة لينافس أقرانه في أي مكان في العالم – سواء اختار البقاء في لبنان أو الانطلاق منه نحو آفاق أوسع.

كسر حاجز الخوف من الرقمنة

واجهت المجموعة في لبنان تحدياً ثقافياً يسبق التحدي التقني ويتطلب معالجة مختلفة: الخوف من التحوّل الرقمي عند كثير من المؤسسات التقليدية. أصحاب شركات صغيرة ومتوسطة اعتادوا على أساليب العمل التقليدية طوال حياتهم المهنية كانوا ينظرون إلى الرقمنة بريبة ممزوجة بالقلق: هل ستلغي وظائف؟ هل ستكلّف أموالاً طائلة؟ هل ستكون معقّدة إلى درجة لا يمكن التعامل معها؟

لمواجهة هذا التحدي، نظّمت المجموعة عشرات الندوات وورش العمل المصمّمة خصيصاً لتفكيك هذا الخوف وتحويله تدريجياً إلى فهم ثم إلى اقتناع ثم إلى خطوات عملية. شرح خبراؤها لأصحاب تلك الشركات بلغة بسيطة وأمثلة عملية مأخوذة من الحياة اليومية كيف يمكن للتجارة الإلكترونية أن تنقل منتجاتهم من حدود الحيّ والمدينة إلى أسواق في قارات أخرى. وكيف أن الأرشفة الإلكترونية ليست ترفاً بل حاجة ملحّة لحماية تاريخ المؤسسة وبياناتها وعقودها من الضياع والتلف. وكيف أن وجود موقع إلكتروني بسيط وحسابات على وسائل التواصل يمكن أن يضاعف عدد العملاء بتكلفة تكاد تكون صفرية مقارنة بأساليب التسويق التقليدية.

وفي ندوات الأمن السيبراني، كان التركيز على المعادلة الدقيقة التي يجب أن يفهمها الجميع: العالم الرقمي يفيض بالفرص الهائلة، لكنه محفوف أيضاً بمخاطر جدّية لا يمكن تجاهلها. حماية البيانات ليست رفاهية تقنية بل حجر الزاوية في أي تحوّل رقمي ناجح ومستدام.

حلم الدولة الذكية

لم يقتصر طموح أبوغزاله التقني على القطاع الخاص. ظلّ صوته مرتفعاً ومتكرراً في الدعوة إلى تبنّي الحكومة الإلكترونية كعلاج جذري لأمراض الإدارة العامة اللبنانية المزمنة التي تنغّص حياة المواطنين يومياً: البيروقراطية المعطّلة التي تحوّل أبسط

معاملة إلى رحلة عذاب، والفساد الذي ينخر في كل مفصل إداري، وهدر أوقات المواطنين وطاقاتهم في طوابير لا تنتهي ومراجعات لا تنقضي.

قدّمت مجموعته استشارات عملية لبعض البلديات والمؤسسات العامة اللبنانية، مع التشديد على نقطة جوهرية يتجاهلها كثيرون: الرقمنة ليست مجرد شراء أجهزة كمبيوتر حديثة وتوزيعها على مكاتب الموظفين. هذا فهم سطحي ومضلّل. الرقمنة الحقيقية تغيير عميق في ثقافة الخدمة العامة وفي العلاقة بين المواطن والدولة وفي طـريقة تفكير الموظف الحكومي في دوره ومسؤولياته. طرح فكرة الانتقال المرحلي المدروس: البدء برقمنة الخدمات الأكثر إلحاحاً والأكثر تماساً مع حياة المواطن اليومية – تسجيل العقارات، واستخراج الوثائق الرسمية، ودفع الرسوم والضرائب – ليكون ذلك نموذجاً ناجحاً يبني الثقة ويشجّع على توسيع التجربة تدريجياً.

الذكاء الاصطناعي: الوعد والتحدّي

في وقت كان فيه الحديث عن الذكاء الاصطناعي في لبنان لا يزال أقرب إلى الخيال العلمي منه إلى الواقع المعاش، كان أبوغزاله يتحدث عنه كحقيقة قادمة لا محالة ويجب الاستعداد لها الآن لا غداً. نظّم ندوات ومحاضرات في بيروت لتوضيح أن هذه التكنولوجيا ليست مجرد اختراع مستقبلي بعيد المنال. إنها تتسلل بالفعل إلى كل قطاع وكل مهنة وكل جانب من جوانب الحياة: الطب والتعليم والصناعة والزراعة والمال والقانون والإعلام.

رسالته كانت مزدوجة بامتياز – تحمل في طيّاتها التحذير والتبشير في آن واحد: تحذير صريح من أن الذكاء الاصطناعي سيلغي حتماً وظائف تقليدية كثيرة اعتاد عليها الناس واعتبروها مضمونة إلى الأبد. ودعوة حارّة في الوقت ذاته للاستعداد للوظائف الجديدة التي سيخلقها – وظائف لم يسمع بها أحد بعد لكنها ستصبح بعد سنوات قليلة من أكثر المهن طلباً في السوق. نصيحته المتكررة للشباب اللبناني كانت واضحة ومباشرة: "لا تخافوا من الذكاء الاصطناعي ولا تعادوه. تعلّموا كيف تفهمونه وتديرونه وتوجّهونه. فالمستقبل لن يكون لمن يستبدلهم الذكاء الاصطناعي، بل لمن يستطيع أن يعمل مع الذكاء الاصطناعي ويوظّفه لصالحه."

التعليم الرقمي:
الضرورة التي فرضتها الأزمة

حين فرضت جائحة كورونا واقعاً جديداً غير مسبوق على العالم كله وتوقف التعليم التقليدي فجأة، كان لمؤسسات المجموعة في لبنان دور ريادي في دعم التعليم الرقمي والتحوّل الاضطراري نحو الفصول الافتراضية. لم تكتفِ بالدعوة والمطالبة من بعيد، بل انخرطت عملياً في تقديم حلول ملموسة. قدّمت دورات مجانية للمعلمين والمعلمات حول كيفية إدارة الصفوف الافتراضية واستخدام أدوات التعليم عن بعد. وساهمت بالتعاون مع جهات مانحة في توفير أجهزة لوحية لبعض الطلاب المحتاجين الذين لم يكونوا يملكون وسيلة للاتصال بالدروس عبر الإنترنت.

عملت أيضاً على معالجة مشكلة جوهرية لا يتحدث عنها كثيرون: فجوة المحتوى العربي الرقمي. فكثير من المواد التعليمية والتدريبية المتاحة على الإنترنت باللغة الإنجليزية أو بلغات أوروبية أخرى، مما يخلق حاجزاً أمام الطلاب والمهنيين الذين قد لا يجيدون تلك اللغات بالقدر الكافي. أنتجت المجموعة مواد تعليمية وتدريبية عالية الجودة باللغة العربية وجعلتها متاحة للجميع.

رعاية الابتكار وريادة الأعمال

انطلاقاً من قناعة راسخة بأن أفكار اليوم هي ثروات الغد، وأن الابتكار ليس حكراً على الشركات العملاقة بل يمكن أن يبدأ من غرفة صغيرة على يد شاب يمتلك فكرة جيدة وإرادة قوية، دعمت المجموعة الشركات الناشئة اللبنانية في قطاع التكنولوجيا. وفّرت للمبتكرين الشباب التوجيه الذي يحتاجونه في خطواتهم الأولى، والتدريب على كيفية صياغة خطط الأعمال وعرض أفكارهم بطريقة مقنعة أمام المستثمرين المحتملين، وأتاحت لبعضهم مساحات مكتبية وخدمات استشارية بشروط مدعومة تخفّف عنهم أعباء البدايات الصعبة.

قصص النجاح التي خرجت من تلك المبادرات – شباب لبنانيون أسسوا شركات تقنية ناجحة انطلقت من لبنان لتصل إلى أسواق إقليمية وعالمية – كانت دليلاً ملموساً على أن العقول اللبنانية قادرة على الإبداع والمنافسة متى وجدت التربة المناسبة والرعاية الأولى.

أثر يمتدّ أبعد من الأرقام

لم يكن دعم أبوغزاله للمعرفة والتكنولوجيا في لبنان مجرد خدمة مهنية تُقدّم وتُفوتر وتنتهي. كان استثماراً واعياً في مستقبل البلد ذاته. من خلال آلاف المتدربين الذين مرّوا ببرامجه واكتسبوا مهارات جديدة، وعشرات الشركات التي بدأت رحلة التحوّل الرقمي بمساعدته، والوعي الذي انتشر تدريجياً حول الأمن السيبراني والذكاء الاصطناعي والملكية الفكرية – تركت المجموعة أثراً يتجاوز ما يمكن أن تحصيه الأرقام والإحصاءات.

رسّخت قناعة جوهرية بدأت تنتشر في أوساط متزايدة من اللبنانيين: أن هذا البلد، رغم جراحه العميقة وأزماته المتلاحقة، يمتلك المفتاح الذهبي لنهوضه – عقول أبنائه، وقدرتهم التي أثبتتها التجربة مراراً على تطويع التكنولوجيا لخدمة الإبداع والإنتاج والتميّز.

الفصل 8: لبنان في زمن الانهيار

الزلزال الذي لم يكن مفاجئاً

حين ضرب الانهيار المالي لبنان بدءاً من أواخر عام 2019، بدا للكثيرين كزلزال مباغت هزّ أركان البلد من أساساته. لكنه لم يكن كذلك في عيون طلال أبوغزاله. فالرجل الذي ظلّ لسنوات يحذّر عبر المنابر الإعلامية والمؤتمرات من أن النموذج الاقتصادي اللبناني يسير نحو الجدار، لم يُفاجأ حين وقع الاصطدام. ما فاجأه – إن كان ثمة ما يفاجئه – هو حجم الإنكار الذي سبق الانهيار، وعدد الذين رفضوا سماع جرس الإنذار حتى اللحظة الأخيرة.

في تحليله للأزمة، لا ينطلق أبوغزاله من موقع المنتصر الذي يقول: "ألم أحذّركم؟" رغم أنه يحقّ له ذلك أكثر من كثيرين. ينطلق من موقع من يحبّ هذا البلد ويؤلمه ما آل إليه، ويريد أن يفهم ما حدث فهماً دقيقاً ليستخلص منه الدروس الضرورية للمستقبل. فالأزمة في نظره ليست مجرد أزمة مالية أو مصرفية أو نقدية يمكن علاجها

بإجراءات تقنية محدودة. إنها أزمة نموذج بأكمله – أزمة منظومة سياسية واقتصادية وإدارية بُنيت على أسس هشة واستمرت لعقود بفضل توازنات دقيقة وتسويات مؤقتة وتدفقات مالية خارجية أخفت العيوب البنيوية دون أن تعالجها.

جذور الأزمة كما يراها

يرصد أبوغزاله عدة جذور عميقة للأزمة اللبنانية، يتشابك بعضها مع بعض في شبكة معقدة يصعب فصل خيوطها:

أولاً: الاعتماد المفرط على الاقتصاد الريعي القائم على الفوائد المصرفية المرتفعة والمضاربات العقارية وتحويلات المغتربين. هذا النموذج أنتج وهم الازدهار لسنوات طـويلة لكنه لم يبنِ اقتصاداً منتجاً حقيقياً قادراً على الصمود حين تجفّ مصادر التمويل الخارجية.

ثانياً: غياب الحوكمة الرشيدة والشفافية في إدارة المال العام والسياسات الاقتصادية. قرارات مصيرية اتُّخذت في غرف مغلقة بعيداً عن أي رقابة حقيقية أو محاسبة فعلية. والمعلومات المالية الأساسية – من حجم الدين العام الفعلي إلى كيفية إنفاق الموازنات – ظلت غامضة ومتضاربة لسنوات.

ثالثاً: الفساد المتجذّر الذي تحوّل من ظاهرة هامشية إلى ثقافة سائدة تنخر في كل مفاصل الدولة والاقتصاد. فساد لا يقتصر على الرشوة الصريحة بل يمتد إلى المحسوبيات والتعيينات السياسية والصفقات المشبوهة وغياب الكفاءة في المناصب الحساسة.

رابعاً: إهمال القطاعات المنتجة – الصناعة والزراعة والتكنولوجيا – لصالح قطاع الخدمات المالية الذي تضخّم حتى أصبح يمثّل وزناً غير متناسب في بنية الاقتصاد. هذا الاختلال الهيكلي جعل الاقتصاد اللبناني هشاً أمام أي صدمة خارجية.

خامساً: هجرة العقول المستمرة منذ عقود دون أي سياسة جدية لوقفها أو حتى لتخفيف وطأتها. لبنان ظلّ يصدّر أفضل كفاءاته إلى العالم دون أن يحصد عوائد حقيقية من هذا التصدير سوى التحويلات المالية التي كانت تُستخدم لتغطية الاستهلاك لا لتمويل التنمية.

ليس انهياراً بل كشفاً

من أبرز ما يميّز قراءة أبوغزاله للأزمة اللبنانية أنه يرفض التعامل معها كنهاية تاريخ. نعم، الأزمة كارثية. نعم، ملايين اللبنانيين فقدوا مدخراتهم وتراجع مستوى معيشتهم بشكل مريع. نعم، مؤسسات عريقة أغلقت أبوابها وكفاءات لا تُعوّض غادرت البلد. كل ذلك صحيح ومؤلم. لكنه يصرّ على أن الانهيار – على قسوته – أدّى وظيفة ضرورية وإن كانت مؤلمة: كشف الحقيقة.

قبل الانهيار، كان الجميع يعيش في فقاعة من الأوهام: وهم الليرة القوية، ووهم المصارف الصلبة، ووهم الاقتصاد المزدهر. الانهيار حطّم تلك الأوهام وأظهر الهيكل العظمي الحقيقي للاقتصاد اللبناني بكل هشاشته. وهذا الكشف – مهما كان مؤلماً – هو الخطوة الأولى الضرورية نحو أي إصلاح حقيقي. لأنك لا تستطيع إصلاح ما لا تراه، ولا تستطيع علاج مرض ترفض الاعتراف بوجوده.

وصفات عملية لا شعارات

لا يكتفي أبوغزاله بالتشخيص والتحليل. يقدّم رؤية متكاملة للخروج من النفق تقوم على محاور عملية واضحة:

يدعو إلى إعادة هيكلة شاملة للقطاع المصرفي تضع حقوق المودعين في المقدمة وتعيد بناء الثقة المفقودة على أسس جديدة من الشفافية والرقابة الفعلية. ويطالب بتحويل الاقتصاد من نموذج ريعي استهلاكي إلى نموذج إنتاجي معرفي يقوم على التكنولوجيا والخدمات المتخصصة والابتكار والملكية الفكرية. ويشدّد على ضرورة إصلاح منظومة التعليم من جذورها لتتوافق مع متطلبات القرن الحادي والعشرين. ويدعو إلى تبنّي الحكومة الإلكترونية كأداة جذرية لمكافحة الفساد وتحسين الخدمات العامة. ويطالب بسياسة وطنية حقيقية للتعامل مع الاغتراب اللبناني كشريك في التنمية لا كمجرد مصدر للتحويلات المالية.

رسالة إلى اللبنانيين في زمن الظلمة

في كل ظهور إعلامي خلال سنوات الأزمة، ظلّ أبوغزاله يحمل رسالة واحدة إلى اللبنانيين، يكررها بصيغ مختلفة لكن جوهرها لا يتبدّل: لا تسمحوا لهذه الأزمة أن تسرق منكم ثقتكم بأنفسكم وبقدراتكم. الأزمات تمرّ – كل الأزمات في التاريخ مرّت – والشعوب التي تنهض بعدها هي تلك التي ترفض الاستسلام وتحوّل الألم إلى طاقة بناء. لبنان نهض من حروب وكوارث أعنف من هذه الأزمة، وفي دمه ما يكفي من عناد الحياة لينهض مرة أخرى.

لكنه يُلحق هذه الرسالة دائماً بتحذير ضروري: النهوض هذه المرة يجب أن يكون مختلفاً عن كل المرات السابقة. لا يجوز إعادة بناء النموذج القديم ذاته بأخطائه ذاتها. النهوض الحقيقي يتطلب شجاعة الاعتراف بأن النموذج القديم فشل، وشجاعة بناء نموذج جديد مختلف جذرياً – نموذج يقوم على المعرفة والإنتاج والشفافية والعدالة والتكنولوجيا، لا على الريع والفساد والمحسوبيات والأوهام.

الفصل 9: شهادات تُضيء المسار

القيمة الحقيقية للكلمة

لا تُقاس مكانة الإنسان الحقيقية بعدد الألقاب التي تسبق اسمه ولا بطول سيرته الذاتية ولا بحجم مؤسساته وأرقام أعماله. تُقاس بنوعية الكلمات التي تُقال عنه حين لا يكون القول واجباً ولا المديح مفروضاً ولا المجاملة مطلوبة. تُقاس بما يبقى في أذهان الناس بعد أن تنطفئ الأضواء وتنفضّ المؤتمرات ويعود كل واحد إلى حياته اليومية.

في مسيرة الدكتور طلال أبوغزاله الطويلة مع لبنان، جاءت الشهادات من مواقع متعددة ومتباينة – رسمية وفكرية وإعلامية ودينية وفنية وأكاديمية – لتلتقي جميعها عند فكرة مركزية واحدة: أن الرجل يمثّل نموذجاً استثنائياً في الجمع بين المعرفة والموقف والرسالة. نموذجاً لإنسان لم يفصل يوماً بين نجاحه الشخصي والتزامه تجاه مجتمعه وأمته، ولم يستخدم المعرفة كأداة للإثراء فحسب بل كسلاح للبناء والتغيير.

تحت القيادات الدينية

ربطت بين الإمام موسى الصدر وطلال أبوغزاله خيوط من القيم المشتركة يتقدّمها الإيمان بأن العلم هو السلاح الأول في يد المحرومين والمهمّشين، وأن النهوض بالمجتمعات لا يبدأ من القصور الرئاسية بل من مقاعد المدارس. وقد عبّر الصدر في أكثر من سياق عن تقديره العميق للنماذج العربية التي صنعت ذاتها من رحم المعاناة، معتبراً أن مسيرات كمسيرة أبوغزاله تجسّد أنبل ما في الإنسان من قدرة على تجاوز ظلم الظروف.

السيد حسن نصرالله أشاد بالدور المعرفي والمهني الذي يؤديه أبوغزاله في خدمة لبنان والمنطقة، مشيراً إلى أن مسيرته تقف شاهدة على قدرة الإنسان العربي على المنافسة والتفوّق في أعلى المحافل الدولية حين تتضافر الإرادة مع العلم والعمل الجاد.

غبطة البطريرك مار بشارة بطرس الراعي أعرب عن تقديره العميق لما يمثّله أبوغزاله من قيم العطاء والمسؤولية الاجتماعية، مشيراً إلى أن مسيرته تؤكد قدرة لبنان على إنتاج قامات فكرية ومهنية تُشرّف المنطقة بأسرها في المحافل العالمية. ودعا إلى الاقتداء بمثل هذه النماذج الملهمة خصوصاً في أزمنة التحديات والاهتزازات

شهادات رؤساء الجمهورية

فخامة الرئيس ميشال عون وصف أبوغزاله بأنه "اسم معروف على نطاق واسع لنجاحه في مجالات العلم والمعرفة"، مؤكداً أن "سجله حافل بالإنجازات عربياً ودولياً." كلمات موجزة لكنها تحمل اعترافاً رسمياً بمكانة الرجل ودوره.

الرئيس العماد إميل لحود أعرب عن اعتزازه بما حققه أبوغزاله من إنجازات عابرة للحدود والقارات، معتبراً أن حضوره الدائم في لبنان يشكّل إضافة نوعية حقيقية لبيئة الأعمال اللبنانية، ونموذجاً يحتذى به للشباب العربي الطامح إلى التفوّق المهني والأكاديمي.

الرئيس ميشال سليمان ثمّن العلاقة الوطيدة التي تربط أبوغزاله بلبنان رغم انشغالاته العالمية الواسعة، مشيراً إلى أن مبادراته المتعددة في ميادين التدريب والتعليم

والتكنولوجيا تعزّز قدرات الشباب اللبناني وتفتح أمامهم آفاقاً كانت مغلقة في سوق العمل الإقليمي والدولي.

فخامة الرئيس العماد جوزاف عون – الذي استقبل الدكتور أبوغزاله حين كان قائداً للجيش اللبناني قبل انتخابه رئيساً للجمهورية – أبدى تقديراً عميقاً لمسيرته ولدوره في دعم لبنان ومؤسساته. ثمّن خلال ذلك اللقاء الإسهامات المعرفية والتقنية التي تقدمها مجموعة أبوغزاله، مشيراً إلى أن الشراكة بين المؤسسة العسكرية والقطاع المعرفي تمثّل ركيزة أساسية في بناء قدرات الدولة اللبنانية وتحديث أدائها. ورأى في أبوغزاله نموذجاً للإنسان العربي الذي يجمع بين الرؤية الاستراتيجية والقدرة على التنفيذ، وبين الانتماء الراسخ للمنطقة والحضور الفاعل على المستوى الدولي. وأكد أن لبنان بحاجة إلى أمثال هذه الطاقات والكفاءات التي تثبت أن الإرادة والمعرفة قادرتان على تجاوز أصعب الظروف وصنع الفارق في مسيرة الأوطان.

شهادات رؤساء الحكومات

جمعت بين الرئيس الشهيد رفيق الحريري وأبوغزاله رؤية مشتركة تتقاطع عند نقاط جوهرية: الإيمان بأن مستقبل لبنان الاقتصادي يكمن في الانفتاح والاستثمار في التعليم والبنية التحتية والخدمات المتقدمة. وكان الحريري يرى في أبوغزاله تجسيداً حياً للعصامية العربية التي تستحق الاحتفاء والدعم.

الرئيس سليم الحص قدّر في أبوغزاله التزامه العميق بالقيم المهنية الرفيعة وحرصه الدائم على نقل المعايير الدولية إلى البيئة العربية، معتبراً أن جهوداً كهذه تبني لبنة أساسية في صرح اقتصاد قائم على الشفافية والكفاءة لا على الفساد والمحسوبيات.

الرئيس نجيب ميقاتي نوّه بدور أبوغزاله في تعزيز حضور لبنان على الخريطة الاقتصادية الدولية وربط اسمه بالتميز المهني وريادة اقتصاد المعرفة على المستوى العربي.

الرئيس فؤاد السنيورة أكّد أن الخبرات والاستشارات التي يقدمها أبوغزاله تمثل رافعة حقيقية للاقتصاد اللبناني في مجالات حيوية كالحوكمة والشفافية المالية التي يحتاجها البلد أكثر من أي وقت مضى.

الرئيس سعد الحريري عبّر عن تقدير عميق لمسيرة أبوغزاله، مشيراً إلى أنها تجسّد القيم ذاتها التي آمن بها والده الشهيد: العمل والإصرار وبناء الإنجاز بالعلم لا بالشعارات.

الرئيس نبيه بري ربطته بأبوغزاله علاقة تقدير متبادل قائمة على احترام مشترك. يُثمّن بري التزام أبوغزاله تجاه لبنان والجنوب تحديداً، ويعتبره شاهداً على أن تلك الأرض الطيبة التي احتضنت اللاجئين قادرة على صنع رجال يتركون بصمتهم في العالم.

شهادات الوزراء والمسؤولين

معالي الوزير سليمان فرنجية وصفه بكلمات تحمل دفء العلاقة الشخصية: "هو أخ عزيز على قلوبنا. نثمّن جهوده في مجالات المعرفة والتكنولوجيا، ونؤكد على دوره القيادي على المستويين العربي والدولي."

معالي وزير الثقافة القاضي محمد وسام المرتضى ذهب أبعد من المجاملة المعتادة، فاعتبر أن اسم طلال أبوغزاله "بات مرادفاً للإرادة والنجاح"، وأن تجربته تكشف كيف تتحوّل الرؤية إلى إنجاز ملموس حين تجتمع الإرادة بالعلم والالتزام. ووصفه بأنه يعكس "التاريخ الحقيقي للعربي، بقمة في الفكر، وانفتاح في الرؤية، وأفق إنساني واسع."

معالي وزير التربية والتعليم العالي الدكتور عباس الحلبي ترجم تقديره لأبوغزاله بخطوة عملية ذات رمزية خاصة: تسمية مدرسة الغازية الرسمية باسم "مدرسة طلال أبوغزاله للإبداع"، تكريماً لدوره في دعم التعليم الرقمي والتحوّل التكنولوجي. اعتبر أن مسيرته تجسّد "التزاماً طويل الأمد بالتعليم والابتكار" – التزام لم يتوقف عند حدود الخطابات بل ترجم نفسه في مبادرات ملموسة على أرض الواقع.

معالي وزير الإعلام جورج قرداحي – وهو إعلامي محترف يعرف قيمة الكلمة ووزنها – قال عبارة ستبقى محفورة في سجل الرجل: "إن من يبحث عن معنى العصامية لا يحتاج إلى عناء، فهي طلال أبوغزاله." الرجل الذي خرج من نكبة وطن جريح وحمل فلسطين في قلبه دون مساومة، ليصبح رمزاً من رموز الإرادة العربية التي ترفض الانكسار.

معالي الوزير كريم بقرادوني – الكاتب والمفكر السياسي المعروف – خصّص لأبوغزاله كتاباً كاملاً بعنوان "طلال أبوغزاله، رجل تسكنه المعرفة"، قال فيه إن العقل عند أبوغزاله "لا يشيخ"، مستحضراً مقولة الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون عن العقل الذي يظل متّقداً باحثاً دائماً عن المزيد. واعتبر أن المعرفة عند هذا الرجل ليست مهنة يمارسها في ساعات العمل ويتركها حين يعود إلى البيت – إنها أنشودة حياة لا تتوقف.

معالي وزير الاقتصاد والتجارة أمين سلام رأى في مبادرات أبوغزاله "استثماراً نوعياً" في التكنولوجيا والصناعة المعرفية يخدم التعليم والاقتصاد الوطني ويفتح مسارات جديدة أمام الشباب.

معالي وزير العمل مصطفى بيرم أكّد أن برامج التدريب المهني وبناء القدرات التي تقدمها المجموعة تفتح أبواباً حقيقية أمام الشباب اللبناني في مواجهة البطالة وهجرة الكفاءات.

معالي وزير الدفاع يعقوب الصراف نوّه بالتعاون مع مؤسسات أبوغزاله في مجالات التدريب والتأهيل العسكري والإداري، معتبراً أن بناء القدرات البشرية استثمار حقيقي في أمن الوطن ومستقبله.

معالي الوزير إلياس بو صعب أشار إلى أن المبادرات التعليمية والتقنية التي يرعاها أبوغزاله تسدّ فجوة حقيقية في المنظومة التربوية اللبنانية وتهيّئ الأجيال الجديدة لمتطلبات عالم متغيّر.

معالي الوزير عصام شرف الدين وصفه بأنه نموذج عربي ملهم يثبت أن الطموح والعزيمة لا تحدّهما جغرافيا ولا ظروف.

معالي الوزير عبدالرحيم مراد أشاد بدوره التعليمي والتنموي المتواصل ورأى في استثماره بالمعرفة النموذج الذي يحتاجه لبنان للخروج من أزمته.

معالي وزير الصناعة جورج بوشيكيان أكّد بوضوح أن "مبادرات ومشاريع الدكتور طلال أبوغزاله تفتح آفاقاً حقيقية للتدريب وفرص العمل أمام الشباب اللبناني."

القاضية غادة عون أشادت بالجهود التوعوية والقانونية في مجال حماية الملكية الفكرية، مؤكدة أن نشر ثقافة احترام الحقوق الفكرية ركيزة لا غنى عنها لأي نهضة اقتصادية جادة.

شهادات المؤسسات العسكرية والأكاديمية

قائد كلية فؤاد شهاب للقيادة والأركان العميد الركن محمد بيطار ثمّن الدور المعرفي لأبوغزاله وما يقدمه من محاضرات ورؤى استراتيجية تُثري الفكر الإداري والعسكري وتساعد المؤسسة العسكرية على مواكبة التطورات.

قائد الكلية الحربية العميد ركن جورج صقر أعرب عن تقديره لحرص أبوغزاله على دعم المؤسسات الوطنية ومساهمته في رفع كفاءة الكوادر البشرية.

سعادة المهندس علي نور الدين عسّاف – ممثل رئيس مجلس الوزراء – اعتبر أن اسم طلال أبوغزاله "يختصر تاريخاً مشرفاً من النضال" ودوراً عربياً وعالمياً رائداً في السياسة والاقتصاد والمال.

رئيس الجامعة اللبنانية البروفيسور بسام بدران وصف أبوغزاله بأنه "الشريك الأساسي في دعم البحث العلمي وربط الجامعة بشبكات المعرفة الإقليمية والدولية، وتمكين طلابها من أدوات العصر."

شهادات الإعلام والثقافة والفن

جريدة النهار اللبنانية العريقة وصفته بعبارة مكثّفة ودالّة: "حامل رسالة لا مجرّد صاحب إنجاز"، يؤمن بأن المعرفة هي الطريق الوحيد لبناء الأوطان.

الإعلامية نايلة تويني رأت فيه صوتاً اقتصادياً جريئاً لا يهادن ولا يجامل، وأشارت إلى أن حواراته تتميز بعمق ووضوح يجعلانه مرجعاً موثوقاً في تحليل المشهد الاقتصادي

الإعلامية والكاتبة ماغي فرح وصفته بأنه يجمع بين حدّة الذكاء ودفء الإنسانية، وأن حضوره في أي محفل يضفي بُعداً فكرياً يتخطى الأرقام الجافة إلى الرؤية الشاملة والمعنى العميق.

الفنانة نجوى كرم – وهي أيقونة فنية لبنانية عربية – وصفته بكلمات موجزة تحمل معنى كبيراً: "النابغة والمبدع"، مؤكدة أن لبنان يحتاج إلى أمثاله خصوصاً في زمن المحنة والتحديات.

ميشال حايك أشار إلى أن مسيرة أبوغزاله تثبت أن العقول العربية قادرة على صنع المستقبل وتغيير المعادلات حين تجد البيئة المناسبة والإرادة الصادقة.

ليلى عبداللطيف أعربت عن إعجابها بطاقته التي لا تتوقف وحيويته التي تتحدى العمر، مؤكدة أن شخصيته تحمل محرّكاً داخلياً لا ينطفئ من العزيمة والرغبة في العطاء والبناء.

الكاتبة غادة فؤاد السمّان أطلقت عليه لقب "إمبراطور الاقتصاد العربي"، ورأت فيه رمزاً لريادة قائمة على العدالة الاجتماعية والتفوّق العملي المبني على الجدارة لا على الوراثة. وذهبت إلى تشبيهه بـ"السندباد بلا حدود" الذي جال العالم دون أن يفقد بوصلته، وجمع بين أدوار المعلّم والحكيم والصديق.

ما وراء الكلمات

هذه الشهادات، على تنوّع مصادرها واختلاف زوايا نظرها وتفاوت مستوياتها، لا ينبغي أن تُقرأ كمجموعة مدائح متراكمة في سجل ذهبي. إنها مرآة متعددة الأوجه تعكس مساراً ترك أثره فعلاً في فضاءات متعددة: السياسة والتعليم والاقتصاد والثقافة والإعلام والقضاء والفن والمؤسسة العسكرية. كلمات جاءت من اتجاهات مختلفة ومتباينة – أحياناً متناقضة سياسياً – لكنها التقت عند نقطة واحدة: أن المعرفة حين تقترن بالموقف الصادق والإرادة التي لا تلين والالتزام الذي لا يساوم، تصبح قوة تغيير حقيقية لا يمكن تجاهلها.

الفصل 10: لبنان في كتاباته العالمية

الخريطة الشخصية

حين يقف طلال أبوغزاله على منصة دولية – في قاعة مؤتمر بنيويورك أو قاعة محاضرات في لندن أو منتدى اقتصادي في دبي أو مقر منظمة أممية في جنيف – لا يغيب لبنان عن كلماته. قد يحضر كمثال عابر في سياق تحليل اقتصادي موسّع، أو

كدراسة حالة مفصّلة في ورقة بحثية، أو كقصة شخصية تُروى لإضاءة فكرة أكبر. لكنه في العمق أعمق تجذّراً مما توحي به الجمل والعبارات المنفردة.

الرجل الذي صاغت تجربته ثلاثة أمكنة متتالية – يافا حيث الجذر المقتلع، وبيروت حيث التكوّن والصقل، وعمّان ثم العالم حيث الانطلاق والبناء – يحمل في ذهنه خريطة شخصية للمشرق العربي. في هذه الخريطة يحتل لبنان موقعاً خاصاً لا يشبه موقع أي بلد آخر: موقع المختبر الذي تداخلت فيه المعرفة والحرية والأزمة والإبداع والفساد والإمكانات المهدورة في تركيبة لا تتكرر.

لبنان في خطابه العالمي ليس بلداً صغيراً على ضفاف المتوسط تتراكم فيه الأزمات كما تتراكم الأمواج على صخور الرملة البيضاء. إنه نموذج مكثّف لتناقضات المنطقة العربية بأسرها ولإمكاناتها غير المستثمرة. حين يتحدث أمام جمهور من الخبراء والمسؤولين الدوليين، سرعان ما يملأ الإطار النظري العام بأمثلة حيّة ونابضة من التجربة اللبنانية، يقدمها تارة كقصة صمود ملهمة يمكن للعالم أن يتعلّم منها، وتارة كجرس إنذار مبكر ينبغي أن يسمعه كل من يعتقد أن اقتصاده محصّن ضد الانهيار.

جسر بين السيرة والقضية

في مناسبات كثيرة، يفتتح أبوغزاله حديثه في المنتديات العالمية بجملة صارت علامة مسجّلة باسمه: "أنا فلسطيني المولد، لبناني التكوين، عربي الانتماء، عالمي الرؤية." هذه الكلمات ليست زخرفة بلاغية يفتتح بها كلمته ثم ينتقل إلى الموضوع الحقيقي. إنها هي الموضوع ذاته – أو على الأقل هي المفتاح الذي يفتح كل المواضيع التي سيتناولها.

تلك الجملة مدخل للحديث عن قضيتين يراهما متلازمتين كتوأمين سياميين: فلسطين ولبنان. الأولى جرح لا يزال ينزف بعد أكثر من سبعة عقود. والثانية المكان الذي حاول فيه ذلك الجرح أن يلتئم جزئياً بفضل العلم والعمل والإرادة.

حين يروي في جامعة هارفارد أو منتدى دافوس أو مؤتمر الأمم المتحدة حكاية الطفل اللاجئ الذي وصل إلى الجنوب اللبناني لا يملك شيئاً ثم أصبح ما أصبح عليه،

لا يحكي سيرة فردية منعزلة تستدعي الإعجاب فحسب. يقدّم لبنان كشاهد حيّ وشريك فاعل في قصة إنسانية أكبر. يتحدث عن البلد الصغير الذي احتضن مئات الآلاف من اللاجئين رغم ضيق موارده، ويقول للعالم بصوت واضح: هذا البلد يستحق أن يُنظر إليه بعين مختلفة عن عين الشفقة أو اللامبالاة. ويستخدم تجربته الشخصية كبرهان حيّ على أن الاستثمار في تعليم اللاجئين ليس عبئاً يُثقل كاهل الدول المضيفة كما يُصوّره بعض السياسيين في العالم، بل هو استثمار يعود بالنفع على الجميع – لأن المعرفة لا تعترف بالحدود السياسية ولا بجوازات السفر.

لبنان كدراسة حالة اقتصادية

حين ينتقل الحديث من السيرة الشخصية إلى التحليل الاقتصادي، يتحوّل لبنان في خطاب أبوغزاله إلى دراسة حالة غنية بالدروس والعبر لكل من يريد أن يفهم كيف يمكن للاقتصادات أن تزدهر وكيف يمكنها أن تنهار.

في تحليلاته لأزمات الديون السيادية أمام صندوق النقد الدولي أو البنك الدولي، يستحضر النموذج اللبناني ليشرح كيف يمكن لغياب الشفافية وسوء الإدارة وتراكم الديون والفساد المستشري أن يطيح بنظام مالي بدا في ظاهره متيناً لعقود. يقول دون أي مواربة: "لبنان ليس حالة استثنائية معزولة عن بقية العالم. هو إنذار واضح لكل دولة تظن أن الاقتصاد يمكن أن يُدار بلا حوكمة حقيقية، أو أن الفساد يمكن احتواؤه ومنعه من الانفجار إلى الأبد."

لكنه في المقابل لا يترك الصورة مظلمة تماماً. يكشف الوجه الآخر للعملة اللبنانية بالوضوح ذاته: يشرح كيف استطاع بلد بلا نفط ولا ثروات طبيعية ضخمة أن يبني لعقود ازدهاراً حقيقياً قائماً على الخدمات والتعليم والمصارف والإعلام والسياحة. ويؤكد أن انهيار النموذج اللبناني لم يحدث بسبب نقص في الكفاءات – فالكفاءات اللبنانية من أفضل ما أنجبته المنطقة – بل بسبب فساد ممنهج في إدارة تلك الكفاءات وتوظيفها.

الملكية الفكرية: لبنان منجم الأفكار

في المحافل الدولية المعنية بالابتكار والملكية الفكرية، يحضر لبنان في خطاب أبوغزاله بوجه مختلف تماماً عن وجه الأزمات والانهيارات. يحضر كـ"منجم الإبداع العربي" الذي ينتج أفكاراً ومحتوى ثقافياً وفنياً وبرمجياً يفوق حجمه الجغرافي بمراحل.

يستشهد بأمثلة ملموسة من الموسيقى والأدب والتصميم والبرمجيات اللبنانية ليعزّز أطروحته المركزية: أن ثروة العرب الحقيقية ليست مدفونة في باطن الأرض بل كامنة في ما ينتجه العقل البشري. في أحد المؤتمرات الدولية عن الابتكار قال: "الشباب اللبناني لا يقلّ موهبة عن نظرائه في وادي السيليكون. ما ينقصهم ليس الذكاء ولا الإبداع – بل البيئة الحاضنة: التمويل العادل، والتشريعات الحديثة، والبنية التحتية الرقمية." ويمضي ليطرح رؤية جريئة: لو استثمر لبنان جدياً في حماية ابتكارات أبنائه وتصديرها للعالم، لتحوّل من بلد يصدّر العقول إلى مركز إقليمي يصدّر المعرفة – وشتّان بين الأمرين.

الحرية والتنمية: الرابطة التي لا تنفصم

في المنتديات المعنية بالحريات والديمقراطية وحقوق الإنسان، يحمل أبوغزاله لبنان كمثال على ما يسمّيه "الاستثناء العربي" في مجال الحرية. يقول بثقة المُجرّب: "على الرغم من كل أزماته وتعقيداته، يبقى لبنان واحداً من البلدان القليلة في منطقتنا التي يتمتع فيها الإعلام والفكر بهامش واسع من الحرية." ويربط بين هذه الحرية والاقتصاد برابطة يعتبرها غير قابلة للفصل: "الاقتصاد المعرفي لا يزدهر إلا في مناخ حر. القمع يخنق الابتكار ويقتله في المهد. والحرية – رغم فوضاها أحياناً – هي التي تطلق الطاقات الإبداعية الكامنة."

يقدّم لبنان كدليل عملي على أن التنوع الثقافي والفكري – رغم ما قد يسببه من توترات سياسية وتجاذبات طائفية – هو في جوهره محرّك للإبداع والحيوية المجتمعية. حيوية لا تتوفر في المجتمعات المنغلقة التي تُصادر حق الاختلاف وتفرض نمطاً واحداً في التفكير والتعبير.

رسالة مزدوجة الاتجاه

الحضور الدائم للبنان في خطابات أبوغزاله الدولية يحمل رسالة تسير في اتجاهين متقابلين:

الاتجاه الأول نحو العالم: دعوة صريحة لعدم اختزال لبنان في صورة "ملف أزمة" أو "حالة إغاثة" تحتاج إلى مساعدات غذائية ودوائية فحسب. لبنان شريك محتمل يمتلك طاقات بشرية هائلة يمكن أن تكون مصدر إثراء للمنطقة والعالم إذا وُظّفت في الاتجاه الصحيح. والمطلوب من المجتمع الدولي ليس مجرد مساعدات تُضخّ في قنوات الهدر والفساد، بل دعم حقيقي يبني المؤسسات ويطوّر التعليم ويوفّر البنية التحتية الرقمية

والاتجاه الثاني نحو اللبنانيين أنفسهم: رسالة أمل وثقة واستنهاض. حين يسمع اللبنانيون قصتهم تُروى في أرفع المحافل الدولية – ليس بلغة الشفقة والرثاء بل بلغة الاحترام لقدراتهم الكامنة – يستعيدون شيئاً من الثقة بأنفسهم التي أنهكتها الأزمات المتتالية. يقول لهم عبر تلك المنابر البعيدة: "أنتم لستم وحدكم في هذا العالم. وقصتكم تستحق أن تُسمع بكل فصولها – المأساوية والملهمة معاً. ومستقبلكم بأيديكم إذا قررتم التوقف عن انتظار من ينقذكم من الخارج."

سفير من نوع مختلف

يتحوّل أبوغزاله في تلك المنابر الدولية إلى ما يمكن تسميته "سفيراً غير رسمي" لقضية التنمية والنهوض في لبنان. سفير لا يعيّنه رئيس ولا تدفع له حكومة راتباً ولا تمليه وزارة خارجية ما يجب أن يقوله وما يجب أن يسكت عنه. سفير يتحدث بلسان تجربته وضميره، لا يُجمّل الواقع ولا يُخفي العيوب، بل يشرّحها ويحلّلها ثم يُضيء على الطريق الممكن للخروج من النفق.

لبنان في عينيه – وهو يخاطب العالم من أعلى المنصات وأرفعها – هو "بلد الفرص المهدورة والفرص الممكنة" في آنٍ واحد. بلد صغير الجغرافيا لكنه كبير المعنى والدلالة والتأثير. قادر دائماً على مفاجأة العالم بنهوضه من تحت الرماد – تماماً كما فاجأ ذلك الطفل اللاجئ العالم حين صار صوتاً عالمياً للمعرفة.

الفصل 11: أثره على بيئة الأعمال

ما لا تراه العين

حين نتأمل حضور طلال أبوغزاله في المشهد الاقتصادي اللبناني، قد تستوقفنا المظاهر المادية المباشرة التي يمكن رصدها وتصويرها: المكاتب الأنيقة في بيروت، واللافتات التي تحمل اسم المجموعة، والمؤتمرات المزدحمة بالحضور، وفرق العمل المنتشرة في أكثر من موقع. لكن الأثر الحقيقي – ذلك الذي يبقى بعد أن تُغلق المكاتب أبوابها مساءً وتنطفئ أضواء المؤتمرات وتتفرّق الحشود – لا يُقاس بالحجر ولا بالأرقام المجردة ولا بعدد العقود الموقّعة.

إنه يكمن في ذلك التغيير الهادئ العميق التراكمي الذي أحدثه على مدى سنوات في ما يمكن تسميته "العقلية المهنية" السائدة في بيئة الأعمال اللبنانية. تغيير في طريقة تفكير رجل الأعمال في مفهوم التدقيق والشفافية. وتغيير في نظرة المبدع إلى حقوقه الفكرية. وتغيير في تعامل الشركة العائلية مع مفهوم الحوكمة والمأسسة. وتغيير في موقف المؤسسة التقليدية من التحوّل الرقمي. تغييرات لا تتصدّر عناوين الصحف ولا تظهر في نشرات الأخبار، لكنها تُعيد تشكيل البنية التحتية غير المرئية للاقتصاد – تلك البنية التي تحدد في النهاية قدرة أي اقتصاد على الصمود والنمو.

ثورة الحوكمة الصامتة

لسنوات طويلة، سيطر على الاقتصاد اللبناني طابع "الشركة العائلية" التي يديرها الأب المؤسس بقبضة محكمة. كل القرارات تمرّ عبره. الحسابات في رأسه لا في دفاتر شفافة. والتدقيق المحاسبي في نظر كثيرين إجراء روتيني ثقيل لا طائل منه سوى إرضاء مفتّش الضرائب وتجنّب الغرامات. الميزانيات كانت تُعدّ في كثير من الأحيان لتخدم غايات ضريبية لا لتعكس الوضع المالي الحقيقي. وعبارة "دفاتر مزدوجة" كانت مألوفة ومقبولة في أوساط تجارية واسعة.

مع دخول مجموعة أبوغزاله بمعاييرها الصارمة التي لا تقبل المساومة، بدأت ثقافة مهنية مختلفة ترتسم ملامحها ببطء لكن بثبات. لم تأتِ هذه الثقافة بخطاب وعظي يقول للناس: أنتم مخطئون وعليكم أن تتغيّروا. جاءت بالممارسة اليومية والتطبيق

العملي والنتائج الملموسة. حين يرى صاحب شركة أن تقرير التدقيق الحقيقي الشفاف كشف له مشكلة مالية كان يمكن أن تقضي على شركته لو استمرت دون اكتشاف، يبدأ بتغيير نظرته إلى التدقيق. وحين يرى أن الحوكمة الرشيدة ساعدته على اتخاذ قرارات أفضل وزادت ثقة شركائه ومموّليه، يبدأ بالاقتناع أن الشفافية ليست تهديداً بل حماية

لعبت المجموعة دور ما يمكن تسميته "المربّي المهني" الذي يرفض أن يخفض معاييره لتناسب ما اعتاد عليه السوق. بل يعمل بصبر على رفع مستوى السوق ليتناسب مع المعايير. لم يعد التدقيق في المؤسسات التي تعاملت مع المجموعة مجرد توقيع على بيانات جاهزة. تحوّل إلى أداة استراتيجية لقراءة صحة المؤسسة وتشخيص أمراضها قبل أن تستفحل وتصبح غير قابلة للعلاج.

وفي ميدان آخر لا يقل أهمية، ساهمت المجموعة في مساعدة مئات الشركات العائلية اللبنانية على الانتقال من نمط الإدارة الفردية المركّزة إلى نمط الإدارة المؤسسية المنظّمة. ساعدتها على وضع "دساتير عائلية" تنظّم العلاقة بين الملكية والإدارة، وتضع قواعد واضحة لانتقال القيادة من جيل المؤسسين إلى الأجيال التالية دون أن تتحوّل خلافات الإخوة وأبناء العمومة إلى قنابل تنسف المؤسسة من أساسها. هذا العمل الهادئ في مأسسة الشركات العائلية – رغم أنه لا يحظى بتغطية إعلامية واسعة – حمى مئات الوظائف من الضياع وصان مؤسسات عديدة من مصير التفكك والاندثار.

معركة الملكية الفكرية

البصمة الأكثر وضوحاً وتفرداً في إرث أبوغزاله اللبناني تتجلّى في ملف الملكية الفكرية. لبنان بلد مبدع بطبيعته وتاريخه. يضجّ بالمؤلفين والشعراء والموسيقيين والمبرمجين ومصممي الأزياء والمعماريين والمخترعين ورواد الأعمال المبتكرين. لكن هذا الإبداع الغزير ظلّ لعقود بلا سياج حماية حقيقي.

القرصنة كانت ثقافة سائدة لا يستحي منها أحد. نسخ الكتب والأقراص والبرمجيات يتم في وضح النهار. سرقة التصاميم والعلامات التجارية والأفكار تُعتبر ذكاءً تجارياً. والمبدع الذي يشتكي من سرقة عمله يُنظر إليه في بعض الأوساط كمبالغ أو كمن يعرقل حرية السوق.

في هذا المناخ، خاضت مؤسسات أبوغزاله ما يمكن وصفه بمعركة ثقافية قبل أن تكون معركة قانونية. المعركة القانونية – تسجيل العلامات وبراءات الاختراع والمرافعة أمام المحاكم – كانت الجزء الظاهر. لكن المعركة الأعمق كانت في تغيير العقلية السائدة وإقناع المبدعين أنفسهم بأن أعمالهم تمتلك قيمة قانونية واقتصادية تستحق الحماية.

عملت المؤسسة كجسر بين عالمين كانا منفصلين: عالم الإبداع الحر المتفلّت الذي لا يحب القيود، وعالم القانون المنضبط الذي يعمل بالنصوص والإجراءات. نظّمت حملات توعية لم تقتصر على الفنادق الفخمة وقاعات المؤتمرات، بل امتدت إلى الجامعات والنقابات الفنية ومراكز الابتكار والحاضنات التكنولوجية. أوضحت للموسيقي أن لحنه ليس مجرد نغمات في الهواء بل أصل مالي يستحق التسجيل والحماية. وللمبرمج أن الكود الذي يكتبه في ساعات الليل الطويلة عقار افتراضي ينبغي تسجيل ملكيته. وللمصمم أن تصميمه الفريد هوية تجارية لها قيمة سوقية يمكن قياسها.

اليوم حين نرى رائد أعمال لبنانياً شاباً يبدأ مشروعه بتسجيل علامته التجارية وحماية براءة اختراعه قبل أن يبيع أول قطعة أو يقدم أول خدمة، فإن ذلك جزء من أثر تراكمي بطيء لكنه عميق ساهمت فيه المجموعة عبر سنوات من العمل المنهجي على ترسيخ فكرة بسيطة في ظاهرها ثورية في مضمونها: الفكرة ثروة.

البصمة في قصور العدل

لم يقف تأثير المجموعة عند حدود الشركات والمبدعين ورواد الأعمال. امتدّ ليطال الجسم القضائي اللبناني نفسه. القوانين اللبنانية المتعلقة بالملكية الفكرية والتجارة الإلكترونية كانت في معظمها قديمة أو غير مفعّلة أو غير مواكبة للتطورات التقنية المتسارعة. وكان كثير من القضاة والمحامين يفتقرون إلى الخبرة التقنية اللازمة للتعامل مع قضايا العصر الرقمي المعقدة.

لعبت المجموعة دور بيت الخبرة أمام القضاء. عقدت دورات تدريبية متخصصة للقضاة والمحامين شرحت فيها تعقيدات الاتفاقيات الدولية في مجال الملكية الفكرية ومنظمة التجارة العالمية. والقضايا المعقدة التي أثارتها وتولّت الترافع فيها أمام المحاكم اللبنانية أسهمت في إرساء سوابق قضائية واجتهادات جديدة أصبحت مراجع يعود إليها القضاة في أحكامهم اللاحقة. هذا الإرث القانوني سيظل قائماً ومؤثراً لسنوات طويلة قادمة.

جسر العبور نحو الأسواق العالمية

أدّت مكاتب المجموعة في لبنان دوراً حيوياً آخر: دور المترجم بين المعايير الدولية والسوق المحلي. الشركة اللبنانية الطامحة للتوسع خارج حدودها – سواء لتصدير منتجاتها الغذائية إلى الأسواق الأوروبية أو لتنفيذ مشاريع في دول الخليج أو لإقامة شراكات مع مؤسسات عالمية – كانت تصطدم في كثير من الأحيان بجدار المعايير الدولية الصارمة التي لا تعرف المجاملات.

هنا لم تكتفِ المجموعة بمنح شهادات المطابقة الشكلية. ذهبت أبعد من ذلك: أعادت هندسة العمليات الداخلية لتلك الشركات من الألف إلى الياء لتصبح مؤهلة فعلياً – لا شكلياً – للمنافسة في الأسواق العالمية. هذا الدور أسهم في إخراج عدد من العلامات التجارية اللبنانية من دائرة المحلية الضيقة إلى فضاء العالمية الرحب، مما زاد فرص نموها وبقائها وساهم في جلب العملة الصعبة للبلد.

مدرسة الاحتراف: الأثر البشري

ثمة بُعد أخير في أثر المجموعة لا يقل أهمية عن كل ما سبق: البُعد البشري المباشر. تحوّلت مكاتب المجموعة في بيروت على مدى سنوات إلى ما يشبه أكاديمية تطبيقية يتخرّج منها كوادر مهنية تحمل معها ثقافة عمل مختلفة عمّا هو سائد.

آلاف الموظفين اللبنانيين الذين عملوا في هذه المكاتب – سواء استمروا فيها لسنوات طويلة أو انتقلوا بعد فترة إلى مؤسسات أخرى – حملوا معهم ما يمكن تسميته بصمة المدرسة الأبوغزالية: الالتزام الصارم بالمواعيد في بلد اشتهر تاريخياً بمرونة مواعيده، والدقة المتناهية في التوثيق والأرشفة، وثقافة المظهر المهني اللائق، وتقديس التعلّم المستمر الذي لا يتوقف عند حدود الشهادة أو الترقية.

هؤلاء الخريجون انتشروا في شرايين الاقتصاد اللبناني: في المصارف والشركات الكبرى والمؤسسات العامة والمنظمات الدولية. ونقلوا معهم أينما ذهبوا ثقافة الاحتراف والانضباط والجودة. يشكّلون اليوم شبكة واسعة من السفراء غير الرسميين لمنظومة قيم مهنية ترفض التسيّب والتراخي وتؤمن بأن الجودة والمصداقية هما المعيار الوحيد الذي يصمد أمام اختبار الزمن.

الفصل 12: لبنان الذي يريده

السؤال الذي لا يتقاعد

بعد هذه الرحلة الطويلة عبر فصول الذاكرة والمؤسسات والخطابات والشهادات والأرقام والأحلام، نصل إلى لبّ الحكاية ومحورها. نصل إلى السؤال الذي يشغل بال أبوغزاله ويؤرّق لياليه ويدفعه إلى مواصلة العمل وهو في عقده الثامن بطاقة شاب في العشرينيات: أيّ لبنان يحلم به؟ أيّ لبنان يراه ممكناً إذا توفّرت الشروط الضرورية؟

الصورة التي يرسمها ليست يوتوبيا خيالية لمدينة فاضلة لا وجود لها إلا في أذهان الحالمين. وليست قصيدة رومانسية حالمة عن لبنان الأخضر وأرز الربّ. إنها رؤية هندسية محسوبة – خارطة طريق واقعية لبلد يعرف إمكاناته جيداً كما يعرف نقاط ضعفه، ويدرك أن المسافة بين واقعه المنهار وحلمه الممكن يمكن قطعها بالعمل الجاد والإدارة الرشيدة والرؤية الواضحة، لا بالمعجزات ولا بالشعارات ولا بانتظار الفرج من خارج الحدود.

دولة المواطن الرقمي

لبنان الذي يتمنّاه أبوغزاله دولة تنتمي إلى القرن الحادي والعشرين لا إلى القرن التاسع عشر. دولة بلا طوابير مذلّة أمام النوافذ الحكومية حيث يقف المواطن ساعات ليحصل على ورقة مختومة. وبلا سماسرة معاملات يتربّحون من عجز الإدارة وبؤس المراجعين. وبلا ملفات ورقية صفراء تتآكل في أقبية رطبة لا يدخلها الضوء.

يرى في الحكومة الإلكترونية الحل الأنجع لآفة الفساد الإداري المزمن. فالخوارزميات لا تنتمي إلى طائفة ولا تحمل بطاقة حزبية ولا تقبل رشوة تحت الطاولة ولا تميّز بين وجيه وإنسان عادي. يحلم بمواطن لبناني يُنجز كل معاملاته من هاتفه وهو في منزله أو في مقهى أو في أي مكان في العالم. وبدولة تمتلك بيانات حقيقية شفافة قابلة للتحقق تبني عليها سياساتها وموازناتها وقراراتها، بدلاً من التخمينات والتسويات السياسية المبنية على توازن المحاصصة لا على منطق الأرقام.

من اقتصاد الريع إلى اقتصاد العقل

لبنان الذي يحلم به أبوغزاله بلد يشفى من إدمانه القديم على الاقتصاد الريعي الذي أوصله إلى الكارثة. ذلك النموذج القائم على الفوائد المصرفية المرتفعة والمضاربات العقارية وتحويلات المغتربين واقتصاد الخدمات السطحية أثبت إفلاسه بالمعنى الحرفي للكلمة. البديل الذي يطرحه ليس عودة إلى الصناعة الثقيلة التقليدية التي لا تملك فيها لبنان ميزة تنافسية واضحة. البديل هو اقتصاد معرفي منتج يقوم على ما يجيده لبنان فعلاً: الخدمات المتخصصة والابتكار والملكية الفكرية والتكنولوجيا والتعليم والمحتوى الإبداعي.

يريد للبنان أن يستعيد دوره التاريخي كمنارة للمنطقة، لكن بصيغة تناسب عصر المعلومات لا عصر البواخر. بدلاً من مستشفى الشرق بمفهومه القديم، مركز للأبحاث الطبية المتقدمة والسياحة العلاجية الرقمية. وبدلاً من جامعة الشرق بمعناها الكلاسيكي، مركز لتصدير المناهج الإلكترونية والتعليم عن بعد إلى المنطقة العربية والعالم. وبدلاً من مرفأ للبضائع فحسب، مرفأ رقمي للبيانات يربط الشرق بالغرب عبر كابلات الألياف الضوئية.

تعليم يصنع مخترعين لا موظفين

الركن الأقدس في جمهورية أبوغزاله المتخيّلة هو التعليم. لكنه لا يقبل بأي تعليم. يريد تجاوز المناهج التقليدية القائمة على الحفظ والتلقين والامتحانات التي تقيس ذاكرة الطالب لا ذكاءه ولا قدرته على التفكير والابتكار وحل المشكلات. يحلم بمدرسة وجامعة تخرّج مبتكرين ورواد أعمال ومفكرين أحرار، لا مجرد باحثين عن وظائف حكومية يقضون فيها بقية حياتهم.

يؤمن بأن الطفل اللبناني يملك ذكاءً فطرياً ومرونة ذهنية عالية وقدرة على التعلّم السريع – وأن الجريمة الحقيقية تكمن في قولبة هذا الذكاء داخل أنظمة تعليمية بالية تخنق الإبداع بدلاً من إطلاقه. يحلم بأن يكون الإنترنت حقاً مكفولاً لكل طفل لبناني كالماء والهواء. ويريد ديمقراطية تعليمية حقيقية تتيح لابن القرية النائية في عكار أو الضنية جودة التعليم ذاتها التي يحصل عليها ابن العاصمة – وذلك ممكن تقنياً عبر الفصول الافتراضية والتعليم الرقمي.

المصالحة مع الاغتراب

في رؤية أبوغزاله، الاغتراب اللبناني كنز حقيقي لم يُكتشف بعد على حقيقته. ملايين اللبنانيين المنتشرين في كل قارات العالم يشكّلون شبكة بشرية هائلة من العقول والخبرات والعلاقات والأموال. لكنه يرفض التعامل مع هذه الشبكة كمصدر للتحويلات المالية فحسب – كبقرة حلوب لا تُستدعى إلا حين يحتاج البلد إلى ترميم ما دمّره الفساد.

يحلم بلبنان يتعامل مع مغتربيه كشركاء حقيقيين في صناعة القرار والتنمية لا كأغراب يُدعون في المناسبات ثم يُنسون. يتخيّل شبكة عالمية مترابطة رقمياً من العقول اللبنانية: الطبيب في هيوستن يساهم عن بعد في تشخيص حالة مريض في البقاع عبر تقنيات الطب الاتصالي. والمهندس في دبي يشارك في تصميم بنية تحتية في طرابلس. والباحث في باريس يتعاون مع زميله في الجامعة اللبنانية على مشروع بحثي مشترك. يريد أن تُربط قصص النجاح اللبنانية في الخارج بالوطن الأم عبر المصالح المشتركة والاستثمارات الذكية والمشاريع العابرة للحدود، لا عبر الحنين والنوستالجيا والتبوّلة.

السيادة التكنولوجية

يطرح أبوغزاله مفهوماً للسيادة يتجاوز المعنى العسكري والدبلوماسي التقليدي. في عصر الحروب السيبرانية واختراق البيانات وقطع الإنترنت كسلاح حرب، يرى أن استقلال لبنان لا يُصان فقط بالجيش والحدود المرسومة على الخريطة. يُصان أيضاً بامتلاك بنية تحتية رقمية وطنية مستقلة، وسيرفرات محلية تحمي البيانات الحسّاسة، وقدرة تقنية على صدّ الهجمات الإلكترونية.

يحلم ببلد لا يكتفي بدور المستهلك السلبي للتطبيقات والمنصات الغربية والآسيوية، بل يصبح منتجاً لها ومشاركاً فاعلاً في صنع الحضارة الرقمية العالمية.

الأمل كفعل يومي

لبنان الذي يرسمه أبوغزاله في خطاباته وكتاباته ومحاضراته ليس مستحيلاً ولا بعيد المنال كما قد يبدو للوهلة الأولى. يعلم بلغة الأرقام والجدوى أن المقومات الأساسية للنهوض موجودة بالفعل: العقل البشري المتميّز، والموقع الجغرافي الاستراتيجي، والمرونة الاجتماعية، والتنوع الثقافي، والإرث التاريخي في ريادة الأعمال. ما ينقص ليس المقومات بل عنصران اثنان: الإدارة الرشيدة التي تعرف كيف توظّف هذه المقومات، والإرادة السياسية الصادقة التي تضع مصلحة البلد فوق مصالح الأفراد والطوائف والأحزاب.

صورته للبنان هي صورة طائر الفينيق – لكن طائر فينيق من نوع جديد. طائر لا يكتفي هذه المرة بالنهوض من الرماد ليعيد بناء ما كان موجوداً قبل الحريق. ينهض ليبني شيئاً جديداً مختلفاً أفضل. بلد صغير بالجغرافيا لكنه عملاق بالمعنى والقدرة والإمكان. قادر أن يكون منارة للشرق ومختبراً للابتكار العربي، إذا قرر أبناؤه أن يستبدلوا جلد الذات والشكوى والانتظار بجلد العمل والبناء والمبادرة.

الخاتمة

لم يكن هذا الكتاب محاولة لكتابة سيرة شاملة لطلال أبوغزاله – فتلك مهمة تحتاج إلى مجلدات لا إلى كتاب واحد. ولم يكن سعياً لتوثيق كل تفصيل في حضوره اللبناني الممتد عبر عقود. كان، قبل كل شيء وبعد كل شيء، محاولة للنظر إلى لبنان من خلال مرآة مختلفة – مرآة تجربة رجل دخل هذا البلد طفلاً لاجئاً لا يملك شيئاً سوى حضن عائلته، وغادره بعد سنوات حاسمة وهو يحمل منه ما يكفي ليبني عليه مشروع حياة كاملاً، ثم عاد إليه مراراً وتكراراً: مؤسساً ومفكراً ومحاضراً وشاهداً ومبشّراً بمستقبل يراه ممكناً.

كشفت العودة إلى بدايات الحكاية أن "لبنان في عيون طلال أبوغزاله» ليس صورة ثابتة جامدة معلّقة على حائط. إنه تراكم طبقات حيّة من التجربة: طبقة الجرح الفلسطيني الذي لا يُنسى ولا يبهت مع الزمن. وطبقة الامتنان العميق لبلد فتح ذراعيه لطفل لاجئ ومنحه فرصة التعلّم والنمو. وطبقة الوعي المبكر بقوة المعرفة كسلاح وجودي لا ترف أكاديمي. وطبقة الانفتاح على مدينة كانت في زمنها مختبراً استثنائياً للحرية والفكر والمال والإعلام والإبداع. وطبقة الألم أمام ما آل إليه هذا البلد من انهيار واختلال. وطبقة الأمل العنيد الذي يأبى أن ينطفئ.

ثم جاءت السنوات اللاحقة لتضيف بُعداً مؤسسياً: مجموعة مهنية تحمل اسم صاحبها تفتح مكتباً في بيروت وتدخل السوق اللبناني وتتعامل مع شركات ومصارف ومؤسسات وتدرّب الشباب وتسجّل العلامات التجارية وبراءات الاختراع وتعمل بصبر على نشر ثقافة مهنية جديدة تقول إن الشفافية حماية والحوكمة ضرورة والفكرة ثروة والجودة معيار البقاء الوحيد.

وخارج المكاتب، كان للرجل حضور لا يقل وزناً: في الجامعات يخاطب شباباً رأى في عيونهم قلق جيل بأكمله ويحاول أن يمنحهم ما هو أثمن من النصيحة: الدليل الحي على أن النهوض من القاع ممكن. وفي الإعلام يشرح ويحذّر ويصارح ويرفض المجاملة حتى لو كان الثمن هجوماً ونقداً. وعلى المنابر الدولية يحمل قصة لبنان إلى العالم بلغة تجمع بين الاحترام والصراحة، فلا يُجمّل ولا يرثي، بل يقدّم بلداً يستحق فرصة حقيقية للنهوض.

وحين فتحنا في هذا الكتاب المجال لأصوات لبنانية متعددة تحدثت عن أبوغزاله – رؤساء ووزراء وقادة دينيون وعسكريون وقضاة وإعلاميون وأكاديميون وفنانون وكتّاب – تبيّن أن المرآة تعمل في الاتجاهين. "لبنان في عيون طلال أبوغزاله" يقابله "طلال أبوغزاله في عيون لبنان". وفي تلك الشهادات المتنوعة ظهر الرجل في صور متعددة تُكمل بعضها: معلّم صارم في مهنته لا يقبل التهاون، ومتحدث يمزج العمق بالبساطة فيصل إلى القلوب قبل العقول، وشريك في تشكيل وعي جيل جديد بقيمة المعرفة والابتكار والملكية الفكرية.

في الفصول الأخيرة، حين رسمنا ملامح لبنان الذي يريده أبوغزاله، تبيّنت معالم رؤية متماسكة وطموحة لكنها ليست مستحيلة: لبنان يضع التعليم في صدارة أولوياته ويحميه كما يحمي أمنه القومي. يبني دولة مؤسسات وقانون لا دولة حصص ومحسوبيات. يعيد هيكلة اقتصاده حول المعرفة والخدمات المتخصصة والتكنولوجيا. يدخل بجدّية في التحوّل الرقمي. يمنح شبابه أسباباً حقيقية للبقاء والبناء. ويصل ما انقطع بينه وبين ملايين أبنائه في الاغتراب ليحوّلهم من مصدر تحويلات مالية إلى شركاء في مشروع نهضة شاملة.

ليس من مهمة هذا الكتاب أن يحكم على واقعية تلك الرؤية أو على سرعة إمكان تحققها. فالتاريخ يُصنع بتضافر إرادات وقوى كثيرة تتجاوز الفرد مهما بلغ تأثيره ومكانته. لكن ما يمكن قوله بثقة هو أن هذه الرؤية تنبع من تجربة معاشة حقيقية لا من تأمّل نظري في برج عاجي. رجل ذاق طعم الفقر واللجوء والغربة في طفولته، ولمس بأصابعه معنى أن يفتح له بلد مثل لبنان باب المدرسة والجامعة، ثم خبر بالعمل والعرق معنى المحاسبة والملكية الفكرية واقتصاد المعرفة والتحوّل الرقمي في مسيرة امتدت عقوداً – يحقّ له أن يحلم للبنان بمستقبل يليق بإمكاناته الحقيقية. أن يكون أكثر من مساحة جغرافية على خريطة المتوسط. أن يكون فكرة حيّة عن بلد يستطيع أن يصنع لنفسه دوراً في عالم لا يرحم من يتأخّر عن قطار المعرفة.

قد يطوي القارئ هذا الكتاب وهو يحمل أسئلة أكثر مما يحمل أجوبة: هل يستطيع لبنان فعلاً أن يتحوّل إلى اقتصاد معرفة؟ هل يملك الإرادة السياسية لردم الهوّة بين الحلم والواقع؟ كيف يمكن للشباب أن يترجموا هذه الرؤية إلى خطوات عملية على الأرض؟ هذه الأسئلة مشروعة وضرورية وصحّية. وربما تكون هي الثمرة الأهم لهذا العمل: أن يفتح باب النقاش والتفكير لا أن يغلقه بإجابات جاهزة ووصفات معلّبة.

في النهاية، يبقى الضوء الذي يتكرر في كل حديث لأبوغزاله عن لبنان هو ذاته الذي حاولنا التقاطه في هذه الصفحات: ضوء المعرفة طريقاً إلى الكرامة والنهوض والحرية، مهما اشتدّت العتمة واستطالت. فإذا كان هذا الكتاب قد نجح – ولو بقدر يسير – في نقل شيء من ذلك الضوء إلى عيني القارئ وعقله، وفي إضافة بُعد جديد إلى صورة لبنان في وعيه، فإنه يكون قد أدّى الرسالة التي وُجد من أجلها.

أما الباقي – كل الباقي – فمتروك للزمن وتقلّباته، ولإرادة اللبنانيين أنفسهم وقدرتهم على تجاوز انقساماتهم، ولأمثال طلال أبوغزاله ممّن يصرّون – بعناد جميل لا يعرف الاستسلام – على أن يروا في وسط الركام والدمار والإحباط بلداً لا يزال قادراً على أن ينهض من جديد.

قائمة إصدارات
مجموعة طلال أبوغزاله العالمية المنشورة

مؤلفـــات بقلـــم سعادة الدكتـــور طلال أبوغزالـــه

رقم	عنـــوان الإصـــدار	الرابـط	
1	النجـاح رسالـة أخلاقيـة.. رؤية طلال أبوغزالـــــــه	العربية	الانجليزية
		الاسبانية	الصينية
2	من الأمـــــم المتحـــدة إلى الشعـــوب المتحـــدة	العربية	الانجليزية

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	
3	البرمجة التفاعلية المسماه بالذكاء الاصطناعي	العربية 1	العربية 2
		الانجليزية	
4	طلال أبوغزاله.. لأنني أحب الحقيقة	العربية 1	العربية 2
		الانجليزية 1	الانجليزية 2
5	المستقبل الرقمي الحتمي.. عالم المدن الذكية	العربية	الانجليزية

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	
6	العالم المعرفي المتوقد	العربية	الانجليزية
		الفرنسية	
7	البطانية تصبح جاكيت	العربية	الانجليزية
		الصينية	التركية
		المونتنغرية	الفرنسية
		الروسية	

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	رقم	عنوان الإصدار	الرابط
8	من طلال أبوغزاله إلى أبنائه	العربية	13	مصر في عيون طلال أبوغزاله	العربية
9	شر البلية ما يضحك	العربية	14	غزة في عيون طلال أبوغزاله	العربية
10	طلال أبوغزاله.. العالم إلى أين؟	العربية	15	الصين في عيون طلال أبوغزاله	العربية
11	أبوغزاله وحق العودة	العربية	16	العراق في عيون طلال أبوغزاله	العربية
12	الصدى اللعين	العربية	17	طلال أبوغزاله.. أقوال وحكم	العربية

المؤلفـــــــــات الصـــــــــادرة عن

سعـــــــادة الدكتور طلال أبوغزالـــــــــــــــــــــه

رقم	عنـــوان الإصـــدار	الرابـــط	
1	الدكتور طلال أبوغزالـــــه.. العقل الكامـــن وراء الآلـــة	العربية	الانجليزية
		الاسبانية	الصينية
2	طلال ابن أديبـــــــــة	العربية	الانجليزية
		الصينية	الاسبانية
		التركية	الروسية

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	
2	طلال ابن أديبة	الفارسية	الفرنسية
		المونتنغرية	الكردية
3	سر المجد.. رجل من بلدي، سيرة حياة طلال أبوغزاله	العربية 1	العربية 2
4	طلال أبوغزاله.. من المعاناه إلى العالمية	العربية	الانجليزية
5	طلال أبوغزاله في الأمم المتحدة في عيون برونو لانفين	الانجليزية	

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	رقم	عنوان الإصدار	الرابط
6	بعض ما كتب عن.. طلال أبوغزاله	العربية	11	طلال أبوغزاله في هذا العالم المتغير	العربية
7	طلال أبوغزاله.. أقوال وأفعال	العربية	12	الحقيقة في دقيقة.. مع طلال أبوغزاله	العربية
8	طلال أبوغزاله.. الرائد العالمي في مجال الأعمال لخدمة الإنسانية من خلال الأمم المتحدة	الانجليزية	13	طلال أبوغزاله.. عامل المعرفة العالمي في خدمة المنظمات الدولية	العربية
9	سيرة ومسيرة نجاح	العربية	14	عامل المعرفة العالمي.. 50 عامًا من الإبتكار	العربية
10	سلسلة مفاتيح طلال أبوغزاله الإنسانية	العربية	15	شموع أضاءت فضاء الخليج	العربية

رقم	عنوان الإصدار	الرابط	رقم	عنوان الإصدار	الرابط
16	قراءة عن طلال أبوغزاله	العربية	19	طلال أبوغزاله.. رجل تسكنه المعرفة	العربية
17	هل فاتك القطار؟ المنح تصنع الرجال.. طلال أبوغزاله	العربية	20	طلال أبوغزاله.. الصعود إلى القمة	العربية
18	طلال أبوغزاله.. رجل من المستقبل	العربية	21	طلال أبوغزاله على متن الحياة	العربية

E-BOOK